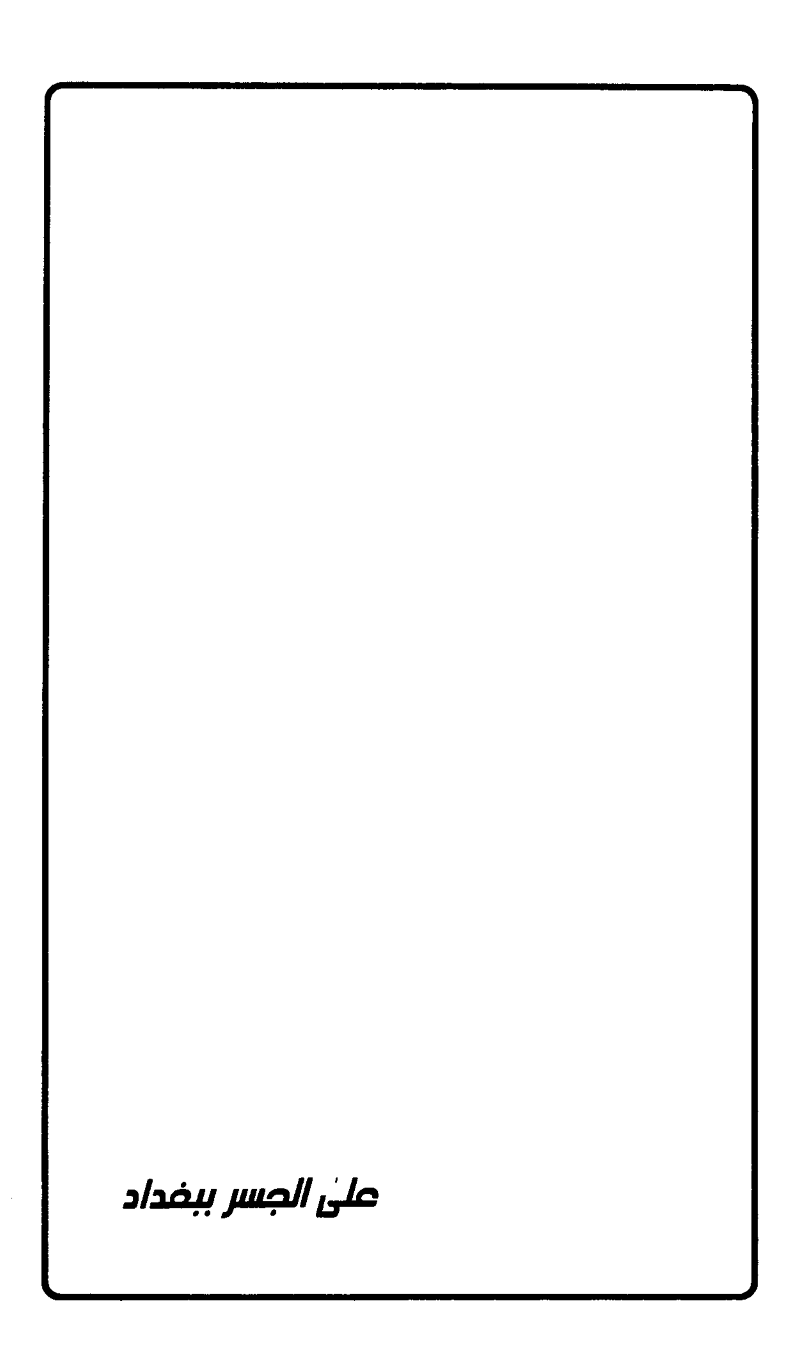
على الجسر ببغداد

كمال السيد

رواية






علىٰ الجسر ببغداد

حُقوقُ الطَبع محفوظَة

الطَبعَة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



بيروت ـ بئر العبد ـ الصنوبرة ـ مقابل سنتر داغر ـ بناية مهدي دياب ط٢

تلفاكس: ٠١/٨٣٧٦٥٤
تلفون: ٠١/٥٥٢٩٠٠ ـ ٠٣/٢٢٥٧٦٥
ص.ب: ٩٧/٢٥

Tel. Fax: 01/837654
Tel.: 01/552900 - 03/225765
P.O.Box: 97/25

على الجسر ببغداد

رواية

كمال السيد





alfeker.net





الاهــداء

الى من كانت تصطحبني في أماسي الجمعات الى هناك . . .

الى بقعة طيبة على ضفاف دجلة عندما يخترق النهر بغداد . . .

الى من كانت تأخذني بيدها الرؤوم .

لأعانق شبابيك يتدفق منها النور فاملأ صدري وروحي من عبير النبوات..

الى أمّي . . .

كمال السيد



في البدء

لأنني لا أحسن السباحة .. بقيت قرب شواطئك يا سيدي .

لأنني أخشى الغرق ؛ وقفت اتأمل من بعيد بحرك الكبير .

ومن أجل أن أبقى مفهوماً .. لم أقتحم الأمواج .

ويا سيدي ماتزال ذاكرة الطفولة ، تتألق بمشاهدك المضيئة .

ما تزال روحي تزخر بتكسّرات النور فوق مرايا قبابك البهية .

وماتزال عيناي مفعمتين بوميض مصابيح منائرك السامقة .

يا سيدي ..

تحطّم قلمي ومازلت عاجزاً عن التعبير عمّا يموج في أعماقي المضطرمة ..

ياسيدي نفدت كلماتي .. ولم تنفد معانيك ولن تنفد .

يا سيدي لا تؤاخذني .. فمن شيمتي التقصير ... ومن فضائلك العفو ..

حفيدك



1

دجلة تتدافع امواجه .. تتألق تحت اشعة شمس الغروب .. القباب والمنائر تغمرها غلالة ذهبية .. فبدت شفّافة موحية .. حتىٰ اشجار النخيل التي تنهض علىٰ ضفاف النهر بدت هي الأخرىٰ كرموش حسناء ساحرة ..

القصور المرمرية الأنيقة .. تتناثر فوق الشطآن كلالئ منثورة، ومايزال قصر الذهب بقبته الخضراء يهيمن علىٰ بغداد اجمل مدن الشرق .. ومايزال الفارس يشير برمحه الطويل الىٰ المديات البعيدة.. حيث تشتعل الثورات[1] .

انزلق القارب الصغير في المياه الباردة .. وراح ينساب مع تموجات النهر .. من بعيد بدا قصر «الخلد» متألقاً .. مايزال فتياً رغم عقد من السنين .

جلس الفتىٰ في قاربه يراقب الامتداد الرشيق لجبهة النهر

حيث تغتسل بعض الأغصان المتدلّية .

غابت الشمس ؛ توارت خلف ذرىٰ النـخيل . . فـبدت مـتّقدة بلون يشبه توهجات الجمر في المواقد الشتائية . .

هبّت نسمة عليلة بدّدت شيئاً من حرّ آب ، في دجلة لا يشعر المرء بلهيب آب، فالضفاف الخضراء والمياه الباردة القـادمة مـن أقاصي الشمال ، تبعث في النفس شعوراً بالحيوية . .

غابت الشمس . . وانتشرت ظلمة خفيفة . . ومـن بـعيد كـان صوت الأذان ينساب كانسياب المياه . . .

ضرب الفتىٰ بمجدافه المياه ، فـاتجه القـارب صـوب قـصر «الخلد». . وشيئاً فشيئاً تناهت له اصوات الموسيقىٰ والغناء، وكان صوت الأذان يتلاشىٰ في اذنيه حتىٰ اختفىٰ تماماً . . .

توقف القـارب فـي الرمـال النـاعمة وبـدا الشـاطئ صـفحة ملساء. . قفز الفتىٰ الذي لم يبلغ العشرين بعد . . قـفز الىٰ الشـاطئ الرملي، وربط القارب بجذور شجرة معمّرة . . وراح يشق طريقه بين اشجار النخيل..

تعالت اصوات المـوسيقىٰ ، وارتـفع غـناء الجـواري . . بـدا القصر في تلك الليلة صدفة جميلة تتألق في الضوء . . .

مئات القناديل تضئ في الشرفات ، والجـواري فـي ثـيابهن

المزركشة.. شعر الفتىٰ انه قد يعيش في عالم آخر.. منذ مدّة وهو يترقب هذه اللحظة.. لقد سمع منذ اسابيع عن عزم الخليفة «المهدي»[2] في تزويج ابنه هارون من ابنة عمّه المدللّة «زبيدة» اثرىٰ فتيات بغداد.. وسيّدة بني العباس الأولىٰ..

اقترب الفتىٰ أكثر.. كان يتلصص حذراً.. منتظراً فرصة مناسبة ليزجّ بنفسه مع جموع المدعوّين.. سوف تشفع له ثيابه الفاخرة التي جلبها لـه أبوه التاجر من الهند...

صدحت الموسيقىٰ.. وظهرت عشرات الجواري.. الفتيات الجميلات يخطرن كالظباء.. يرفلن بالحلل الحريرية المزركشة بالذهب.. فتيات من بلدان عديدة.. فتيان من أرمينيا ومن الهند، والمغرب وايران..

اروقة القصر مزينة بالسجاد الأرمني.. والبسط الفارسية..

وجاء سرب من الجواري يحملن اطباق من الذهب ملأىٰ بالفضة واطباق من فضة ملأىٰ بالذهب.. وجاء سرب آخر من الجواري يحملن انواع الحلل.. وسرب من الفتيات يحملن صناديق تزخر بالمجوهرات.. وتلاهن فتيات يحملن آنية العطر.. واخيراً جاءت حسناوات يحملن اطباق الطعام.. وآنية الخمر..

شعر الفتىٰ لوهلة انه في الجنّة.. تذكر صديقه الفقير الذي مات في «الوباء»[3] قبل أيام.. وفي غمرة ذهوله ظهرت «العروس»

ظهرت «زبيدة» كاجمل ما تكون تنوء بحلل الذهب ورأىٰ لأول مرّة تلك الحلّة العجيبة التي طالما سمع عنها في الأحاديث والحكايات.. رأىٰ شيئاً اسطورياً..

كيف يصاغ الثوب كله من الذهب فلا يدخل فيه من الغزل سوىٰ القليل القليل من الحرير..

كان منظر اللآلئ وهي تطرّز ثوب الذهب كنجوم في بركة تغمرها اضواء الشمس..

كانت زبيدة تخطر في مشيتها تحفّها عشرات الصبايا.. وقد استقر فوق رأسها تاج ملكي مرصّع بالجواهر النادرة..

وجاء «هارون»[4] بشبابه المتفجّر وطوله الفارع.. ووجهه الممتلئ نعمة ودلالاً.

وبالرغم من ان الخليفة قد حرص علىٰ ان يظهر بمظهر الأبهة ولكنه ضاع الىٰ جانب زوجته «الخيزارن» كانت تجلس كملكة، عيناها تتألقان بنفوذ قاهر..

أما الخليفة فقد بدت عيناه منطفئتين.. أذهب بريقهما السُكر..

انتصف الليل.. واشتعلت حمّىٰ الشهوات، وتعالت الضحكات الماجنة..

وانسلّ الفتىٰ.. عاد من حيث أتىٰ.. عاد قبل أن يدركه

الصباح.. وقبل ان تسكت «شهرزاد» عن الكلام المباح..

ألفىٰ قاربه في مكانه لكأنه ينتظر.. شعر الفتىٰ أنه كان في عالم الأطياف.. وانه قد استيقظ ليجد نفسه في قاربه يجدّف باتجاه الجانب الشرقي حيث تنهض اكواخ الفقراء.. طفحت في اعماقه دهشة كفقاعات مليئة بالهواء سرعان ما تنفجر وتتبدد.. سمع نفسه يقول:

- بغداد يا مدينة عجيبة.. كيف امكنك أن تحتضني كل هذا الترف والبذخ الىٰ جانب البؤس..

كيف لدجلتك أن يبقىٰ هادئاً وهو يمرّ بالقصور مقابل الأكواخ.. بغداد أنت حكاية عجيبة..

الويل لك يا بغداد..

فجأة ظهر في قلب الظلمة قارب ملئ بوجوه قاسية.. رجال يحملون الرماح.. بدا أحدهم بطوله الفارع ووجهه القاسي وشواربه المفتولة كائناً مخيفاً كالذي يتحدث عنه تجار البحار..

قفز بعض الرجال الىٰ قاربه.. واستسلم الفتىٰ.. عرف أن هؤلاء من حرس القصر.. وانه قد ارتكب جرماً بالاقتراب من قصر «الخلد».

تركهم يفعلون ما يشاؤون لم يعترض ولم يستعطف..

راح القاربان ينسابان وسط صمت مريع . . سأل الرجل المفتول الساعدين والشارب :

ـ ما اسمك .

اجاب الفتىٰ :

ـ علي .

وصل القاربان مرفأً صغيراً عند جسر الرصافة . . نزل الرجال. . ونزل الفتىٰ . . اتجهوا الىٰ باب الطاق . . وعبروا الخندق . . واجتازوا المسناة. . فاستقبلهم حرس الطاقات في باب البصرة . . وفي ضوء المشاعل تأمل الفتىٰ رجال الشرطة..

ادرك أنهم سوف يذهبون به الىٰ سجن «المطبق» فشعر بدوار يعصف برأسه المثقل بالهموم .

2

قصر الذهب تضيئ اروقته القناديل . . انتصف الليل وخفّت حركة الحرّاس وخبت بعض المشاعل . . أوت جواري القصر الىٰ مخادعهن الوثيرة الخليفة يتقلب فوق سريره بين الوسائد . . تفوح من فمه رائحة الخمر . . من يراه في تلك اللحظات يحسبه نشواناً في خيالات الأحلام . . يقظته حلم لذيذ ونومه اطياف ملوّنة .

ولكن ما بال وجهه يبدو كدراً . . حاجباه ينعقدان . . ولونه مخطوف ما تزال الكوابيس تطارده . . وفي كل مرّة كان يرىٰ خزائن والده في القبو ملأىٰ بالجماجم . . جماجم ابناء العمومة . . فجأة انتفض النائم مذعوراً . . استوىٰ الخليفة علىٰ فراشه وجبينه يتصبب عرقاً .

تلفّت حواليه قبل أن يتأكد من انه زعيم البلاد وخليفة العباد.. الذي تجبىٰ اليه الأموال من المشارق والمغارب . .

كانت حسناء الروم تغط في نوم عميق .. غادر الخليفة فراشه..

وقف الخليفة في شرفة القصر يحدّق في الظلام .. وراح يردد بصوت شجي :

ـ «فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا ارحامكم ...» .

كان «الربيع بن يونس»[5] وزير الخليفة غارقاً في الملاءات في تلك الليلة عندما هب على دوّي طرقات غليظة .. ادرك انهم رسل الخليفة .. ارتدىٰ ثيابه علىٰ عجل وانطلق مع الحرّاس الىٰ قصر «الذهب» .

الفىٰ الخليفة يذرع البهو ، ويردد بصوت جميل آية من كتاب الله هتف الخليفة :

ـ عليَّ بموسى بن جعفر ...

لم يكن هناك مجال للتأخير فالأوامر واضحة وقويّة .. انطلق الوزير يحفّه حرّاس غلاظ الىٰ سكّة المطبق .. هناك والىٰ يمين الطريق المؤدية الىٰ بوابة البصرة يقع السجن الرهيب.. زنازين صغيرة في اعماق الأرض تشبه القبور ، حفرها «المنصور» لكل من يعارض «سلطان الله في الأرض»[6] ! لكل من يعارض الخليفة !.

لم تفلح المشاعل في تبديد الظلمات المتراكمة في «المطبق»

وبدا الهواء المرطوب داخل السجن خانقاً . . .

اتجه الوزير بخطىٰ واسعة الىٰ زنزانة يعرفها تماماً . . هنا ينزل الرجل المدني موسىٰ بن جعفر . . .

كان الرجل المدني مايزال ساجداً كثوب مطروح . . وقف الوزير مشدوهاً . . ومرّت لحظات صمت رهيب . . فهذا الرجل الحجازي لا يعبأ بمن حوله وبما حوله . . لم يسمعه أحداً يتضجّر من ظلمة السجن . . من الزنازين الخانقة من القيود القاسية .

همس الوزير باحترام جمّ :

ـ يا أبا الحسن !

رفع الرجل الذي اطلّ علىٰ الأربعين رأسه تألقت عيناه تحت وهج المشاعل . . وبدا وجهه الأسمر مضيئاً بنور شفّاف..

العينان تخفيان حزناً عميقاً . . . والشفتان تكمن وراءهما ابتسامة ملائكية . . والأنف الأشمّ يعكس كبرياء الإنسان الذي لا يسجد لغير الله . .

شعر الوزير برهبة تستوعب وجوده . . . وتساءل في نفسه عن سر هذا الرجل الغريب . . .

نهض أبو الحسن . . ابتسم الوزير وهو يزف له بشرىٰ الحرّية :

- لقد استدعاني الخليفة وسمعته يقرأ آية من كتاب الله . . .

الوجه الأسمر يطفح بالطمأنينة . . تنعكس فوق ملامحه عوالم السلام..

فك الحارس قيداً يربط قدم السجين بصخرة قاسية . .

في بوابة المطبق الصخرية . . رأىٰ الفتىٰ رجلاً يطلّ علىٰ الأربعين ، وجهه الأسمر يطفح طمأنينة . . وجسمه النحيف يشبه نخلة ميساء . .

فاحت رائحة طيبة . . لكأن الربيع قد حلّ في «المطبق» يمنح المقهورين الأمل..

توقّف الرجل المدني وقد مرّ بالفتىٰ . . تأمل فى وجهه قليلاً وهمس :

- زكاة السلطان الاحسان الىٰ الإخوان .

غادر الرجل المدني «المطبق» لاحت له السماء وقد تناثرت آلاف النجوم كلالئ منثورة فوق عباءة كحلية اللون .

تمتم الرجل المدني وهو يتطلع الىٰ السماء المرصّعة بالنجوم. .

- يا من لا يعتدي علىٰ أهل مملكته !

رجف قلب الوزير تذكر دسائسه للاطاحة بالوزير السابق

«يعقوب بن داود»[7] ها هو الآن في ظلمات المطبق سيبقىٰ فيها حتىٰ ينتقل الىٰ ظلمات القبر.

نهض الخليفة احتفاءً بالرجل المدني.. عانقه وقبّله وقاده ليجلس الىٰ جانبه..

مرّت لحظات صمت قطعها الخليفة قائلاً:

ـ يا أبا الحسن.. رأيت جدّك أمير المؤمنين علياً.. كان حزيناً قال لي: يا محمد: «فهل عسيتم إن توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا ارحامكم»..

سكت قليلاً وأردف:

ـ وها أنا أريد أن أصل رحمي.. أريد أن اردّك الىٰ أهلك.. ولكني اخشاك يا موسىٰ.. اخشىٰ أن تخرج عليّ أو علىٰ أحد من ولدي!

اجاب الرجل المدني:

ـ والله ما فعلت ذلك، ولا هو من شأني.

اجاب الخليفة وقد خامره شعور بالارتياح:

ـ صدقت.

والتفت الىٰ وزيره وقال:

ـ يا ربيع اعطه ثلاثة آلاف دينار وردّه الىٰ أهله . .

انتهىٰ اللقاء . . ونهض الرجل المدني يودّع القصر والسجن ويودّع بغداد . .

في قلبه شوق للقاء الأحبّة . . هناك في مدينة جدّه أولاد وبنات ينتظرون . . يترقبون عودة ابيهم . . .

كانت النجوم تشتد سطوعاً في الهزيع الأخير من الليل ، لم تغفُ بغداد بعد . . فبعض الكوىٰ والنوافذ ماتزال تتدفق نوراً . . وتتناهىٰ لمن يمرّ علىٰ بعض بيوتها اصوات موسيقىٰ وغناء . .

كان الربيع يدرك تقلّبات الخليفة . . يعرف نزواته ويسبر مدىٰ حقده علىٰ أبناء علي . . لهذا هيأ لوازم السفر للرجل المدني الذي غادر أسوار بغداد في طريق العودة الىٰ ارض الوطن . .

ان من يريد العودة الىٰ المدينة عليه أن يطوي المسافات ويجتاز محطّات عديدة . . عليه أن يتجه أولاً الىٰ الفرات قريباً من قرىٰ «نينوىٰ» ثم يعبر النهر متجهاً الىٰ «العذيب» ومنها الىٰ القادسية ثم الىٰ «الرهيمية» ومنها الىٰ «البيضة» ومنها الىٰ عيون «شُراف» والىٰ «بطن العقبة» فالىٰ «زبالة» وفي زُبالة كان رجل من اهلها ينتظر . . يترقب يوماً يعود فيه الغريب الىٰ أهله . .

منذ الصباح و«أبو خالد» يترقّب المسافرين القادمين لقد انصرمت الشهور والأيام ، ومايزال أبو خالد يترقب يوماً يعود فيه

«أبو الحسن»..

الشمس تسافر في بحر السماء.. ومايزال طريق القوافل مقفراً.. لا ناقة ولا جمل..

أبو خالد مايزال يترقب.. ينتظر.. الشمس تجنح نحو الغروب تبهت اشعتها.. واصعب شيء أن ينتظر المرء لكأن الزمن يتوقف.. فتصبح الساعة عاماً واللحظات شهوراً..

اصبح فؤاده خالياً.. بدأت الوساوس تطفو في قلبه كشياطين ايقظها الظلام.. وتساءل في نفسه: ايعود حقاً.. الشمس علىٰ وشك أن تغيب ولا شيء في الأفق..

غاصت الشمس في الافق لم يبق منها سوىٰ ثلمة ضئيلة.. اهتز ايمانه كشجيرة تحرّكها ريحٍ باردة.. فجأة ظهرت في الأفق نقطة.. وشيئاً فشيئاً كانت تكبر وتكبر.. قفز قلبه.. استيقظ في قلبه فرح طفولي لعلّ في القادمين موسىٰ.. اجل انه موسىٰ.. يتقدم «القطار» يمتطي حيواناً ينحط عن خيلاء الخيل ويرتفع عن ذلة الحمير..

هتف العائد:

ـ يا أبا خالد:

ـ لبّيك يا ابن رسول الله..

قال ابن النبي وهو يحاور رجلاً اهتزّ ايمانه قبل الغروب :

ـ لا تشكنّ . . ودّ الشيطان انك شككت .

تمتم أبو خالد :

ـ الحمد لله الذي خلصك منهم . .

همس ابن النبي وهو ينظر الىٰ الافق البعيد . . الىٰ الجهة التي تهب منها ريح الشمال :

ـ ان لي عودة لا اتخلص منها .

وامضىٰ العائد الىٰ ربوع وطنه ليلته قبل أن يستأنف رحلته الىٰ المدينة التي أضاءت الدنيا .

3

مثلما تدلهم السحب في السماء ، اكفهرّت الأجواء في المدينة المضيئة . . وبدا مسجد النبي كوكباً تحاصرة آلاف الغيوم ، رجال الشرطة يجوبون الأزقة والشوارع وهمسات عن موت الخليفة في بغداد في ظروف غامضة . . وها هو ابنه يتربع علىٰ دست الحكم فترتجف المدن ، والذين يعرفون بواطن الأمور ربّما دهشوا لمرأىٰ الخليفة الجديد ما أكثر شبهه بيزيد . . طيشه ، غلظته قسوته خروجه علىٰ التقاليد والأديان والأخلاق . . واعجب شيء فيه يحمل اسم «موسىٰ» وهو في جوهره فرعون وأن يلقب بـ«الهادي»[8] وهو نقيض لذلك .

بدت الأجواء خانقة . . واصعب شيء أن يعيش الإنسان مقهوراً . . فالحياة الكريمة تكمن في الحرّية . . وعندما يشعر المرء أنه فقد حرّيته تصبح حياته عبءً ثقيلاً . . انه مستعد لأن يفقد رأسه

من اجل نسمة حرّة تنعش قلبه..

ليس هناك ما هو افظع من قهر الأحرار، فقلوبهم التي تنبض بسلام.. أو تتدفق رحمة تصبح في لحظة اذلال براكين وشواظ من نار ونحاس..

وما الثورات التي تندلع كحرائق مجنونة إلّا غضب مقدس يختار فيه الأحرار الفناء من اجل الكرامة..

اطل «الهادي» بوجهه القاسي.. بطيشه بحقده بكل عنجهيته فكشّرت شرطته في المدن الخائفة عن انياب اين منها انياب الذئاب.

اتبع «العمري»[9] وقد اصبح الحاكم بأمره في «المدينة» سياسة الاذلال لابناء علي..

بدأت النار تستعر تحت الرماد.. القلوب الحرّة تكتوي بالآلام.. تتقد وقد أزفت لحظة الانفجار..

مثلما تتحشد الغيوم في السماء.. مثلما يصبح الفضاء مشحوناً بالبرق وبالرعود.. كانت نذر الثورة تتجمع.. والتاريخ يشير الىٰ بقعة بين مكّة والمدينة.. هناك سيحطم الإنسان نفسه من اجل كرامته.. سيمزق جسده من اجل أن تبقىٰ روحه بيضاء.. سيقدّم الإنسان جزءه الحيواني من اجل أن يبقىٰ انساناً.. الله وحده يراقب الأعماق.. وحده يدرك ماذا يدور في رأس «الحسين»[10] الجديد وهو يتجه الىٰ قصر الحاكم..

حشود العلويين تتجه الىٰ ميعادها اليـومي أمـام «الأمـير» حاكم المدينة . .

ها هو يتصفح عشرات الوجوه . . عشرات الأسماء الحسن.. يحيىٰ . . الحسين . . ادريس . . و . . . و . . . يريهم أنه هو الحاكم . . بيده الأمر وبيده النهي وهو علىٰ كل شيء قدير . .

صرخ «الحائك» في يوم الجمعة والشمس في كبد السماء :

ـ اين الحسن ؟

والتفت الى الحسين ويحيى باستعلاء:

ـ لتأتياني به أو لأحبسنكما . . لقد تغيب عن العـرض ثـلاثة أيام .

قال يحيى:

ـ لقد الهبته سياطكم . . وطوافكم به المدينة . . واتـهامكم له بشرب الخمر .

قال الحائك :

ـ ان هذا يغضب الأمير !

ابتسم يحيىٰ[11] ساخراً ، وانفجر «الأمير» يهدد ويتوعد :

ـ لسوف احرق بيوتكم .. واهرق الدماء .. إذا لم يأت الحسن..

لم يـعد هـناك مـن طـريق آخـر . . وعـندما يـخيّر الحـرّ أي

الطريقين يسلك طريق الحياة الذليلة أم طريق الفناء ؟ لن يتردد في الاختيار.. سوف يختار «كربلاء».. وهكذا دوّت لحظة الأنفجار.. لقد اختار الحسين طريق الثورة.. ها هو يصغي الىٰ صهيل قادم من بعيد.. الحسين يمنح ابن اخيه اسمه وقلبه وجواده.. يمنحه سيفاً.. والقدر يمنح الثائر الجديد بقعة في الصحراء بين مكّة والمدينة..

شبّت نار الثورة في منتصف الليل.. تألقت المدينة المضيئة.. محمد يمنح اسباطه خيلاً وبيارق.. وأمانٍ خضراء. فرّ الوالي.. عادت شرطته فئراناً مذعورة تبحث عن جحور آمنة.

هبّ الوالي مذعوراً.. ايقظه الأذان.. كلمات بثت في قلبه الذعر. كلمات تنساب كلحن تدور في الفضاء في غبش الفجر:

ـ حيّ علىٰ خير العمل..

لقد مرّ اكثر من قرن علىٰ اندثارها.. وها هي تعود تبشر بفجر جديد.. واستيقظ أهل المدينة علىٰ دوّي الكلمات الثائرة.. لقد نهض الحسين.. تحطّمت قضبان السجون.. وتنفس المقهورون في ذلك اليوم الربيعي نسمات الحرّية..

كلمات الحسين تدوّي في جنبات المسجد النبوّي :

ـ ابايعكم علىٰ كتاب الله..

وسنة نبيه..

وعلىٰ أن يطاع الله . .

وادعوكم الىٰ الرضا من آل محمد . . وعلىٰ أن نعمل فيكم بكتاب الله والعدل . .

الكلمات تطوف منازل المدينة كفراشات تبشر بالربيع . .



4

توافد رجال الثورة .. جاء الحسين ومعه ادريس[12] ويحيىٰ.. الرجل الأسمر تتألق عيناه ببريق هادئ بدتا كنافذتين تطلّان علىٰ عوالم مفعمة بالسلام .. تشع نظراته ممزوجة بحزن سماوي ..

ليس هناك من طريق ثالث .. لقد اختار الحسين طريقه .. قال الذي يكظم ثورة منذ عشرين سنة :

ـ يا حسين ! انك مقتول .. فاحدّ الضراب ..

سكت قليلاً واردف :

ـ ان القوم فسّاق يظهرون ايماناً ويضمرون نفاقاً وشركاً ..

بدا الحسين مستغرقاً في تفكير عميق .. ربّما تذكّر كلمات قيلت منذ قرن مضىٰ .

كلمات قالها الحسين علىٰ شاطئ الفرات : ألا واني زاحف

بهذه الأسرة علىٰ قلّة العدد..

نهض الحسين وفي عينيه تصميم من أن يقتفي خطىٰ الحسين.. من المدينة إلىٰ مكّة..

الجيوش العباسية تغادر بغداد.. كرياح شتائية تطارد الربيع..

الحسين ومعه عّدة أهل بدر في طريقه الىٰ مكّة وقد اطلّ موسم الحج الأكبر..

قافلة الحسين تطوي الصحراء وتهوي في بطون الأودية.. لم تبق بينها وبين مكة سوىٰ ستة أميال.. أرهفت النوق الىٰ اصوات قادمة من بعيد.. سنابك خيل مجنونة تدكّ الأرض..

بدت السماء في ظلمة الوادي مرصعة بآلاف النجوم.. أحدقت الجيوش بالقافلة آلاف الذئاب فوق ذرىٰ التلال تريد الانقضاض علىٰ الفجر الوليد..

تساءل «العباسي»:

ـ هل لهذا الوادي اسم.

ـ نعم اسمه فخّ[13].

ردّد القائل «العباسي» بشيء من الدهشة.

ـفخّ؟!

ـ أجل .. فخّ ..

هيمن صمت مدهش على الوادي تخللته رغاء نوق اضناها السفر في الصحاري ..

كذئاب مجنونة كانت الجيوش تنتظر مولد الفجر لتطعنه .. النجوم تشتد سطوعاً .. وقد اطلّت لحظة الفلق .. انبثق عمود الفجر كشلال من نور فضي .. فاندلعت آلاف السيوف كافاعٍ منتفخة بالسم ..

اليوم هو يوم التروية .. الحسين يقاتل .. يدفع غائلة العدوان، وامواج الذئاب تتجه الى عمق الوادي حيث حطّت القافلة رحلها .. في بقعة بكىٰ فيها آخر الأنبياء ..

لم يكن أمام الحسين سوىٰ طريقين ، الموت ، أو الذل ولم يتردد في الاختيار ..

لم تكن الشمس لتشرق حتىٰ كانت ارض الوادي تهتز لهول معركة رهيبة .

ها هو الحسين يقاتل ليقول : من الممكن تحطيم المؤمن ولكن من المستحيل هزيمته ..

اشرقت الشمس حمراء كعين تنتحب وإذا الأرض مضمخة بالدماء .

عشــرات الســيوف المـغروسة فـي التـراب آلاف السـهام المحطمة . . وعشرات الشهداء . . وعشرات الذئاب تعوي . . تحتفل بنصر الخليفة . .

عشــرات الرؤوس تـرتفع فـوق ذرىٰ الرمـاح . . وعشـرات الرؤوس تلتف حولها رقابها حبال قـاسية كـافاع خـرافـية ورأس الحسين فوق رمح طويل يتقدّم القافلة . . كربلاء تتألق من جديد . .

والوادي يــضج بـصوت رهـيب . . عشـرات الأجســاد المضمخة بالدماء بلا رؤوس . . ما خلا ريح خفيفة تدور في جنبات الوادي . . تولول كأمرأة ثكلىٰ .

وهــناك فــي ذرىٰ التــلال وقـف يـحيىٰ وأدريس وراشـد يتطلعون الىٰ ساحة المعركة . . غضب يتفجر في القلوب . . وعيون تتطلع نحو الأفق البعيد . .

يمم ادريس وراشد وجهه شطر المغرب . . ومـضىٰ يـحيىٰ الىٰ الأرض التي تشرق مـنها الشـمس . . وشـيئاً فشـيئاً غـابا فـي الآفاق . . حيث تلامس زرقة السماء سمرة الصحراء . . فـيما ظلّت الريح تولول وحدها في الوادي المخضب بالدماء . . دماء الأبرياء . .

عـيون المـدينة تـترقب قـافلة عـجيبة . . رؤوس عـلىٰ ذرىٰ الرماح . . يتقدمها رأس الحسين بن علي . . لكأن التاريخ يعيد نفسه من جديد تساءل رجل من بغداد :

ـ رأس من هذا ؟

ـ رأس الحسين .

ـ الحسين ؟! ابن من ؟!

ـ إبن علي .

ـ إبن علي ؟!

قال الذي عنده علم الكتاب :

ـ أجل . . انا لله وانا إليه راجعون . . مضىٰ والله مسلماً صالحاً صواماً . . آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . . ما كان في أهل بيته مثله .

نهض الرجل الأسمر وعيناه تفيضان من الدمع حزناً .

وفي تلك الليلة شبت الحرائق في منازل الثائرين . . السنة الحرائق المجنونة تلتهم البيوت . . المصاحف ، والنخيل . . وغفت المدينة ودخان الحرائق يدور في الأزقة . . فتدمع العيون . . لم يعد هناك كرامة للإنسان . .

غادرت القافلة مدينة الرسول في طريقها الىٰ بغداد . . عشرات الأسرىٰ . . وعشرات الرؤوس تقطع الفيافي الىٰ بغداد..

«تموز» يلهب الصحراء . . يحيلها الىٰ جمر متوقد . . الظمأ والحبال والسلاسل . . والصحراء تجعل من رحلة الأسرىٰ الىٰ

بغداد.. عذابات وآلام.. أليس هناك في اعماق الكائن البشري بقايا للإنسان كيف استحال «العباسي».. الىٰ وحش كاسر لا يرىٰ شيئاً غير نفسه؟!

5

بغداد لاهية .. في سكرة .. غافلة عما يجري .. في منتصف الليل ولجت قافلة الأسرىٰ .. تقدمها عشرات الرؤوس فوق ذرىٰ الرماح ..

دخلت القافلة بغداد من باب الكوفة .. اجتازت «الطاقات» وقد اصطف عشرات الحراس وتوهجت عشرات المشاعل ساق جنود غلاظ الأسرىٰ باتجاه اليمين تحت ضوء قمر شاحب .. بدت السكك المؤديّة الىٰ الدواوين والقصور كدهاليز مظلمة .. اجتاز الجنود سكّة النساء، وتوقفوا أمام جدار صخري قاس .. انفتحت بوابة حديدية كبيرة وظهر حرّاس غلاظ يحملون المشاعل .. ادرك الأسرىٰ انهم قد وصلوا «المطبق» ذلك السجن الرهيب الذي طالما سمعوا عنه الحكايات الرهيبة ..

اقتيد الأسرىٰ الىٰ زاوية في باحة السجن .. تناهت الىٰ

اسماعهم كلمات مقتضبة غير مفهومة ومنّىٰ بعضهم نفسه بالحرّية.. ونظر بعضهم الىٰ السماء المرصعة بالنجوم.. وتعالت همسات تضرع وتمتمات مبهمة لا يسمع منها سوىٰ الله.. يا الله..

وشيئاً فشيئاً هيمن صمت ثقيل.. ملأ باحة «المطبق» حيث تتوهج المشاعل بالكآبة والحزن.. رغم حرارة الصيف فقد كانت تهب من ناحية دجلة نسائم طيبة تبعث في الروح قدراً من الأمل بغد أفضل..

النجوم تشتد سطوعاً في السماء وبدا القمر أكثر شحوباً.. لم تبق سوىٰ سويعات ويطلع الفجر..

نام بعض الأسرىٰ خاصة الشيوخ منهم وظل بعض الشبان يحدّقون في صفحة السماء.. وربّما تهامس بعضهم في شأن ما.. فيما فضّل آخرون الصمت تطوف في رؤوسهم صور الأحبّة والديار وتشتعل في اذهانهم ذكريات قديمة.. وبين الفينة والأخرىٰ يأتي صوت لنباح كلاب بعيدة..

الليل في قصر «الذهب» اضواء حمراء.. وقناديل.. وشرف مفتوحة تلعب بستائرها نسائم «دجلة»..

الليل في اروقة القصر المنيف.. فتيات حسان يرفلن بحلل الحرير.. تتألق فيها اللآلئ ويبرق فيها الذهب..

الليل في البلاط «خليفة» في عنفوان الشباب.. تبرق عيناه

بحمىٰ الشهوات . .

الليل لحظات سكرىٰ وغناء . . وآنية ملأىٰ بالخمر . . المعتقة.. جاءت «غادر»[14] بقدّها الممشوق . . بوجهها الذي يطفح سحراً وجمالاً . . لم يملك الخليفة الشاب إلّا ان يهبّ مفتوناً . . وهبّ الندماء . . اجلالاً لموكب السحر والجمال . . اتّخذت «غادر» مجلسها قريباً من الخليفة المفتون . . وحولها وصائفها استخرجت عوداً من خشب الأبنوس من بين طيات الحرير وبرفق وضعته في حجرها وانحنت عليه . . وانساب الصوت الإنساني الناعم مع انغام العود ليطوح بعقل الخليفة بعيداً . . وليقضي علىٰ ما استبقته الخمرة من قدر ضئيل من الادراك . .

الخليفة الشاب يحلّق بعيداً في عوالم زاخرة باللذائذ . .

استحوذت غادر بسحرها علىٰ الشاب راحت يداه تتحركان مع انغام الغناء . . حتىٰ رأسه بدا يتمايل كرأس افعىٰ يرقصها حاو هندي . .

لم يملك نفسه . . لم يستطع التحمّل أكثر من هذا . . «غادر» تطوّح به بعيداً في وادٍ غارق باللذة . . فجأة برقت عيناه المنطفئتان بسبب السكر . . شق حلّته . . كفّت «غادر» عن الغناء . . توقف العود عن بث الانغام الساحرة . . اشتعلت في رأس الأفعىٰ آلاف الأفكار.. تصور نفسه ميتاً . . وهارون يستولي علىٰ كل شيء ...حتىٰ

محظيته «غادر» .. هارون يعبّ اقداح اللذة أمّا هو فيتشرب الموت والفناء صرخ بقسوة :

ـ كلاّ .

ارتجف القصر .. وظهر رجال غلاظ ..

صاح الخليفة من وراء الستائر :

ـعلي به .. عليّ بهارون .

اسرع الرجال الغلاظ الىٰ سجن خاص .. حيث يقضي هارون لياليهفي ظلال قاتمة من خلافة اخيه ..

جاء هارون وقد ذهبت به الظنون .. حياته ومصيره في كفّ عفريت من الأنس ..

وقف هارون يتحاشىٰ نظرات أخيه .. ويتلقىٰ كلماته الجارحة ..

ووقف القاضي يسطر عبارات اغرب عهد في التاريخ .. من اجل أن لا يحظىٰ هارون بمحظية أخية ..

اعيد هارون الىٰ سجنه واستأنف الخليفة ليلته الحالمة المترعة باللذّة وقد شعر بانه قد ازاح عبئاً ثقيلاً عن كاهله .. دجلة مايزال يجرى في الظلام تتدافع مياهه المتألقة تحت ضوء القمر .. والخليفة مايزّال سادراً في غيّه .. وشيئاً فشيئاً تبرق عيناه .. تضّج فيهما شهوات آثمة .

6

تنفس الصبح . . وسيق الذين اسروا زمراً ، وشاهد بعضهم بغداد لأول مرّة وآخر مرّة .

سار موكب الأسرىٰ يحفّه حرّاس غلاظ . . اجتازوا باتجاه اليسار السكك التي مرّوا بها ليلة أمس . . سكة «النساء» وسكة «سرجيس» سكة «عطية» . . سكة «غزوان» . . حتىٰ إذا وصل الموكب طاقات «باب الكوفة» انحرف باتجاه اليمين في طريق مرصوفة بالحجارة تؤدي الىٰ القبة الخضراء . .

من بعيد لاح تمثال الفارس فوق القبّة مايزال يحمل رمحه الطويل فيشير هذه المرّة صوب «مدينة الرسول» . . الرمح العباسي يحدد جهة الخطر !

موكب الأسرىٰ يقترب من القصر وعلىٰ بعد عشرات الخطىٰ

توقف ريثما يحصل علىٰ الاذن .. ادرك بعضهم من خلال حركة الحرّاس ان الخليفة غير موجود..

مرّت ساعة حسبها الأسرىٰ عاماً .. فجأة ظهر العشرات من رجال الشرطة من طريق جانبية بدوا مثل زوبعة سوداء بعضهم يشهرون السيوف ، وآخرون بايديهم أقواس موتورة .. وبدا الخليفة الشاب بشفته المشقوقة مصعّراً خدّه للسماء يكاد ينفجر غروراً .. يحسب انه سوف يخرق الأرض وانه يبلغ الجبال طولا ..

توقف الخليفة الذي لم يكمل السادسة والعشرين من عمره بعد .. القىٰ نظرة حارقة أودعها كل عقده النفسية الدنيئة بدت عيناه جمرتين تتوقدان حقداً ..

راح يتصفح وجوه الأسرىٰ .. ويمسح بسكين في يده علىٰ انوفهم ! وغاظه أنه لا يجد في عيونهم ذلة الإنكسار .. الانوف ترتفع اباءً والجباه تتألق ثورة .. لم يكن هناك سوىٰ شحوب السهر وعذابات الطريق ..

استدار كزوبعة مجنونة واتجه صوب بوابة القصر .. تحرك موكب الأسرىٰ بصمت الىٰ داخل القصر .. هيمن سكوت موحش وانبعثت من مكان ما رائحة دم .. كل شيء كان يوحي بوقوع مذبحة وشيكة ..

تقدّم بعض الحرّاس وحلّوا عن الأسرىٰ قيودهم والحبال ..

الخليفة مايزال يلهب أسراه بنظرات حاقدة.. وفي يده سكين تبعث بريقاً مخيفاً..

وقف جلّاد فارع الطول علىٰ مقربة من الخليفة بدا بحلّته السوداء شبحاً رهيباً.. بيده سيف برّاق.. وقف كتمثال. لا يطرف له جفنٌ.. كان ينظر الىٰ الخليفة وينتظر.. ينتظر لحظة الانقضاض.

دخل طابور يحمل رؤوس الشهداء علىٰ ذرىٰ الرماح وكان رأس الحسين فوق رمح طويل..

مرّت لحظات صمت رهيب.. لوّح الخليفة المفتون بالسكين ايذاناً ببدء المذبحة.. تحرّك التمثال الرهيب.. برق سيفه القاسي.. تقدم اثنان من الشرطة ليقودا أول أسير الىٰ نهايته الدامية.. مدّ الأسير رقبته.. كان يتمتم بصوت خافت وقد علت وجهه صفرة الموت..

مرّ الزمن كئيباً.. وسيف الجلّاد يرتفع ويهوي.. وتتساقط رؤوس الثوّار.. وفي كل مرّة ينبعث صوت مخيف.. صوت ارتطام السيف بالعنق صوت مخنوق.. يتألف من حرفين كأنه يحكي تمزق اللحم وتهشم العظام الآدمية وفي كل مرّة ينبعث ذات الصوت المخنوق قائلاً: رض...

تساقطت عشرات الرؤوس.. كان بين الأسرىٰ شيخ طاعن في السن انهكته الأيام وعصفت به السنون.. كان يتحاشىٰ

الشرطة وفي كلّ مرّة كان يتأخر .. وكان بعض الشبّان يساعدوه لعلّ هذا القلب القاسي يكف عن مسلسل القتل .. لعلّ الإنسان يستيقظ في اعماقه المظلمة !!

خيم سكون مدهش لم يبق سوىٰ الشيخ .. لعلّه كان يتمنىٰ ان يموت بين احبّته .. في مرابع صباه .. لعلّه كان يحلم بلقاء الأحباب.. لعلّه يريد أن يوصي ابناءه.. لهذا هتف بالخليفة المفتون.

ـ لا تقتلني ! يا أمير المؤمنين .. لا تقتلني أنا مولاك !

صرخ الخليفة المفتون :

ـ مولاي يخرج عليّ ؟ !

هبّ من مكانه وراح يسدّد طعناته بقسوة .. كانت السكين تغوص في جسد الشيخ مزّقت صدره .. غاصت في قلبه .. هوىٰ الشيخ عند قدمي الخليفة .. تكوّم فوق ارضية البلاط .. وشيئاً فشيئاً خمدت الروح وانطفأت العينان .. وجثم حزن ثقيل فوق المكان كغراب في مساء خريفي ..

انتهت الحفلة ؛ جاء رجال غلاظ يحملون الأجساد وآخرون يحملون الرؤوس .. وآخرون يغسلون ارضية البلاط المرصوفة بالصخور القاسية .. وهكذا عاد البلاط انيقاً كما كان .. فيما ظلّت رائحة الدم تدور في أروقة القصر المنيف..

7

المدينة خائفة تترقب، لقد هوىٰ الفارس شهيداً في «فخ» وقد اسفر الخليفة عن وجهه.. كشّر عن انيابه يريد ان ينقض دون رحمة لم يعد هناك حياء.. فالعالم مستباح أمام خيول الغازي.. ريح السموم تعصف بالمدينة تشوي الوجوه..

لم تهدأ الريح إلّا في المساء.. نسائم قادمة من البحر تحاول أن تخفف من حرارة الجوّ الخانقة..

وجاء رجل من اقصىٰ المدينة يسعىٰ قال:

- يا موسىٰ ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين..

اجاب الذى عنده علم الكتاب:

- ان معي ربّي سيهديني.

قال رجل خائف:

ـ غيّب وجهك يا ابن رسول الله مدّة... ان هذا الطاغية لن يتورع عن قتل الناس جميعاً بعد ما قتل الحسين.

دمعت عينا ابن النبي وغمغم بحزن:

ـكان والله صوّاماً قوّاماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

ونظر الىٰ السماء المرصعة بالنجوم من خلال كوّة في الجدار.. وراح يتأمل الاغوار السحيقة.. والتفت... التفت الىٰ الخائفين وقد ارتسمت ابتسامة أمل علىٰ محيّاه وقال:

ـزعم الفرزدق أن سيتقل مربعاً   ابشر بطول سلامة يا مربع

نهض ابن النبي شمّر عن ساعديه... وطوىٰ الأردان عن مرفقيه وانثالت المياه تغمر الوجه الأسمر واليدين.. ووقف الرجل الأسمر في المحراب.. كما وقف موسىٰ بن عمران يتأمل البحر الهائج.. وقد بدت في الأفق البعيد مركبة فرعون وجنوده.

الدعاء معراج الإنسان المؤمن.. سلاح الأنبياء.. واحة وارفة الظلال في صحراء الحياة.. مركبة فضائية يبحر فيها المقهورون الىٰ عوالم زاخرة بالنور والطمأنينة والسلام..

وفي عالم مترع بالخوف.. وفي فضاء مخنوق برائحة الدم جلس وارث محمد يتمتم بكلمات تقطر حبّاً لخالق السماوات

والأرضين.. واصغىٰ الخائفون الىٰ صوت فيه بحة حزن.. صوت يشبه صوت انهمار المطر.

تجمعت في سماء الروح غيوم وغيوم.. ادلهم الفضاء.. ودفء الكلمات يجعل الجوّ مشحوناً.. مخزوناً بالبرق وبالرعود.. الكلمات الدافئة المترعة بحزن سماوي تسافر في الفضاء.. تخترق جدران الزمن:

- «إلهي!

كم من عدوّ انتضىٰ علي سيف عداوته... وداف لي قواتل سمومه.. وأضمر أن يسومني المكروه..

فنظرت الىٰ ضعفي عن احتمال الفوادح.. وعجزي عن الانتصار.. فايدتني بقوّتك وشددت ازري بنصرك... فلك الحمد يا رب.. من مقتدر لا يغلب..

صل علىٰ محمد وآل محمد.. واجعلني لأنعمك من الشاكرين.. ولآلائك من الذاكرين».

هناك في حفر الظلام اشباح تترصد.. تنصب الافخاخ.. وتترصد الضحايا هناك عناكب تنسج بيوتاً واهنة وتنتظر.. وهناك ابتسامات ولكنها في الحقيقة انياب مكشّرة تنزّ صديداً:

- «الهي!

وكم من باغ بغاني بمكائده ونصب لي أشراك مصائده...

واخبأ اليّ اخباء السبع لطريدته انتظاراً لانتهاز فرصته .. فلما رأيت قبح سريرته ، وقبح ما انطوىٰ عليه ..

اركسته لأمّ رأسه وأثنيت بنيانه من أساسه .. ورميته بحجره، وأرديته في حفرته ..

فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يغلب .. صل علىٰ محمد وآل محمد .. » .

والحسد تلك العقدة الدفينة والنار المجنونة التي قذفت بالإنسان من روابي الجنّة الىٰ كوكب الحوادث ..

والحسد ذلك الوحش الكاسر الذي مزّق أواصر الاخاء البشري ليحيل قوافل بشرية الىٰ قطعان من الذئاب الشرسة تطارد انسانية الكائن البشري فيفرّ الىٰ الله :

ـ «الهي !

وكم من حاسد شرق بحسده .. وشجا بغيظه وسلقني بمدّ لسانه ووخزني بمؤق عينه ، وجعل عرضي غرضاً لمراميه ، وقلّدني خلالاً لم تزل فيه .. فناديتك يا رب مستجيراً بك .

واثقاً بسرعة اجابتك ، متوكّلاً علىٰ ما لم أزل أعرفه من حسن دفاعك ..

عالماً أنه لم يضطهد من أوىٰ الىٰ ظل كنفك .

فلك الحمد يا رب . . » .

السجون تضجّ بالمقهورين . . لا يسمع فيها سوىٰ أنّات المعذبين ، وصليل السلاسل والحديد . . وخطىٰ السجّانين الثقيلة :

- «الهي وسيدي !

وكم من عبد امسىٰ وأصبح مغلولاً مكبّلاً بالحديد بأيدي العداة لا يرحمونه ، فقيداً من بلده وولده وأهله ، منقطعاً عن اخوانه يتوقع كل ساعة بأية قتلة يقتل . .

وأنا في عافية من ذلك فلك الحمد يا رب ! » .

وهناك في لجّة البحر . . عندماً تثور الأمواج وتعصف الريح.. فتجري السفن في موج كالجبال . . هناك يتجلىٰ الله بنوره . . عندما تتمزق الحجب في اللحظات التي يقف فيها المسافر علىٰ حافات الغرق والانزلاق في لجّة المياه والقرار :

- «الهي !

وكم من عبد امسىٰ واصبح في ظلمات البحر وعواصف الرياح والأهوال والأمواج يتوقع الغرق والهلاك لا يقدر علىٰ حيلة..

وانا في عافية من ذلك . .

فلك الحمد يا رب . . .» .

وفي حنايا الصحراء . . وفي مفاوز التلال ، يعيش

المشرّدون بعيداً عن الأهل والأحبّة والديار .. يواجهون رياح السموم وقسوة الصحراء والرمال :

ـ «الهي !

وكم من عبد أمسىٰ شريداً .. طريداً .. متحيراً .. جائعاً .. خائفاً .. حاسراً في الصحاري والبراري احرقه الحرّ والبرد..

فلك الحمد يا رب ..

وأسألك يا الهي :

باسمك الذي وضعته علىٰ السماء فاستقلت ..

وعلىٰ الجبال فرست .

وعلىٰ الأرض فاستقرت .

وعلىٰ الليل فاظلم .

وعلىٰ النهار فاستنار ..»[15] .

ها هو موسىٰ بن عمران يقف على حافات المياه يتأمل الامواج .. وقد تناهت الىٰ أذنيه سنابك خيل الفرعون ودوّي مركباته ... وها هو يصغي الىٰ استغاثة قومه قائلين : أوذيناً من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا ..

انّا لمدركون ..

قال لهم موسىٰ : ان معي ربي سيهدين ..

ورفع موسىٰ عصاه عالياً في الهواء ثم اهوىٰ بها فوق البحر.. فانشق وكان كل فرق كالطود العظيم . . واصبح البحر طريقاً للمقهورين والمعذبين . . ومقبرة لفرعون وجنوده . .

لقد استجاب الله دعوة العبد الصالح موسىٰ . . ها هو فرعون.. يغوص في لجّة القرار يشرب الماء المالح . . يغرق . . يختنق . . ويموت ليعود الى شاطئ البحر جثة هامدة . . تسفي عليها الرياح . . وفي بغداد . .

كانت «الخيزران» حانقة . . تبرق عيناها حقداً علىٰ ابنها المتفرعن يريد تحطيمها . . وقتل اخيه هارون . .

في الليل حاكت الخيزران خيوط المؤامرة . . تبادلت النظرات مع آل برمك ، وكلمات مقتضبة بالفارسية .

الخليفة نائم يغط في سكرة . . وانسلت الطبّاخة السوداء وحولها الجواري . . يمرقن في الظلام . . كاشباح تحمل اطباق الموت . . الخليفة المفتون نائم . . غارق في سكرته . . اطبقت اشباح الموت . . جثمت طباخة القصر بجثتها الهائلة فوق وجه الفرعون . . وانشبت الجواري أظافرهن . . وتم كل شيء في غمرة الظلام . . الخليفة يغرق . . يختنق . . ويموت . . وينتهي .

وجاءت «الخيزران» تتأمل جثة «الفرعون» . . وانتزع ابن برمك خاتم الخلافة من يده . . ليبشر به «هارون» .



8

الظلام مايزال يغمر بغداد .. القصر غارق في ظلمة مـخيفة وكانت هناك عـيون تـبرق فـي الظـلام .. واصـوات تشـبه فـحيح الأفاعي .. في قلب الظلام انطلق «ابن بـرمك» و«ابـن ذكـوان» الىٰ السجن فهناك رجل يدعىٰ هارون .. يـترقب أمـرين اقـصاءه عـن ولاية العهد أو القتل .. فقد سوّلت للخليفة نفسه قتل أخيه..

دخل الرجلان السجن..واتجه ابن برمك الىٰ حجرة صغيرة كان هارون يغطّ في النوم .. هزّ ابن برمك النائم ليزف له الحلم :

ـ قم يا أمير المؤمنين .

هبّ النائم مرعوباً .. قال بلهجة فيها خوف ورعب :

ـ كم تروّعني إعجاباً منك بخلافتي .. وانت تعلم حالي عند هذا الرجل .

ابتسم ابن برمك ساخراً :

ـ لقد مات هذا الرجل . . انظر هذا خاتمه .

وأردف وهو يشير الىٰ الباب :

ـ وبالباب وزيره .

ـ الحرّاني ؟ !

ـ نعم . . لقد أحضرته اليك . .

صفّق هارون وقفز من فراشه يكاد يطير . . نعم . . ان ما يراه حقيقة . . انه ليس في حلم . . بل أجمل من الحلم . . لقد انتهت ايام القلق . . وولّت أيام الرعب.. عانق هارون شيخ البرامكة . .

نظر هارون الىٰ ابن برمك نظرات فيها تساؤل . . ترىٰ كيف مات الخليفة الشاب؟ !

غمغم ابن برمك وهو يرمق هارون بنظرات غامضة .

ـ اخبرتني أمّك الخيزران . .

سكت هارون وقد ومضت في ذهنه ما حدث قبل أسابيع . . تذكر لهجة اخيه الحانقة وهو يخاطب أمه : اما لك مغزل تشتغلين فيه ؟ لئن وقف ببابك أمير أو قائد لاضربنّ عنقه !

ومضت في ذاكرة هارون اشياء كثيرة . .

تمتم ابن برمك .

ـ لقد كان مريضاً.

قال هارون بلهجة فيها استسلام:

ـ اجل .. كان مريضاً.

قال ابن برمك وهو يحاول أن يجسّ نبض الخليفة الشاب:

ـ وعندي خبر آخر سمعته وأنا في الطريق.

ـ تطلّع هارون مستفهماً:

ـ سمعت أن «مراجل» قد انجبت صبياً.

سكت هنيهة واردف:

ـ انها ليلة عجيبة! مات فيها خليفة، ونهض فيها خليفة.. وولد فيها خليفة!

غمرت فرحة عارمة وجه هارون.. لقد انفتحت أمامه الدنيا كل عوالمها اللذيذة ومتعها..

هتف ابن برمك:

ـ بغداد تنتظر الخليفة!

بدت بغداد في ذلك الصباح حسناء فارسية ترتدي اجمل زينتها في يوم النيروز..

أهالي بغداد يتطلعون الىٰ قدوم الخليفة هارون.. الشاب الفارع الطول المشرق الوجه..زوج زبيدة السيّدة العباسية الثرية..

انطلقت زغاريد النسوة من شرفات القصور، وعلت هتافات

الرجال في الشوارع بحياة هارون..

وتألق قصر «الخلد» برجال البلاد وبدا ابن برمك رجل البلاط الأول.. البسه هارون خاتم الوزارة وخاطبه بودّ:

- يا أبتي!.. انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلّدتك أمر الرعية، واخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترىٰ.

وأردف وهو يمنحه صلاحيات مطلقة:

-أستعمل من شئت، واعزل من رأيت، فأني غير ناظر معك في شيء!.

وادرك الحاضرون أن الخليفة الفعلي سيكون يحيىٰ.. يحيىٰ البرمكي [16]..

وربت هارون علىٰ كتف الفضل بن يحيىٰ اخيه في الرضاعة.. وابتسم لجعفر.. جعفر بن يحيىٰ.. وابتسم الحظ لابناء برمك.. فهارون سيكون وسيلتهم الىٰ سلم المجد..

الله وحده الذي يراقب الأعماق.. وحده الذي يعلم ما يدور في رأس الخليفة الجديد وهو يتجه الىٰ «الجامع» ليصلّي أول صلاته كخليفة.. ترىٰ ماذا سيفعل هارون مع الدين هل سيذهب اليه ويجثو عنده؟ أم يحاول أن يجرّ الدين اليه بعد ما دانت له الدنيا؟!

9

في غمرة الليل ، تنجم الاشياء .. وتهيج الهواجس ، وتضجّ الشهوات وتحطّم الشياطين سلاسل الخوف .. الحياء .. وتندفع في الدروب والازقّة .. تقتحم القصور والبروج المشيّدة..

مياه دجلة تتألق تحت ضوء البدر .. وقد بدا قصر الخلد في غمرة الظلام حسناء غانية ..

هارون الملك الرشيد غارق في وسائده الحريرية .. يرفل بحلّة مزركشه .. تبرق في عينيه الشهوة ، وقد برقت في ذهنه اطياف «غادر» تلك الحسناء التي تذوب رقّة وجمالاً لكم تمنّاها من قبل ! بصوتها الجميل وغنائها العذب ..

اشتعل في ذهنه طيف لأخيه .. لاح وجهه القاسي بشفته المشقوقة .. طرد عن ذهنه الطيف كما يطرد ذبابة في الصيف.. واضاء خياله طيف «غادر» بقوامها الممشوق .. سوف تأتي..

ولاحت من بعيد .. ها هي قادمة تحفها الجواري .. تنساب في مشيتها كغزال طروب .

انحنت الحسناء لخليفة العصر .. جلست قربه في وداعة وخفضت عينيها تنتظر سبب إرساله ورائها في هذه الساعة من الليل.

راح هارون يتفرسها بنظرات ملتهمة قال دون مقدّمة :

ـ لقد أرسلت ورائك .. من اجل أن تكوني لي :

رفعت الحسناء رأسها ونظرت الىٰ شباب هارون :

ـ ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟

ـ والعهود التي اعطيت اخاك ؟ .

ـ اكفّر عنها .

ـ والحج راجلاً ؟

ـ سأحج ماشياً هذا العام .. من أجلك ..

سكت قليلاً وهمست بدلال :

ـ اتفعل ذلك من اجلي ؟ !

قال هارون وقد اسكره الصوت الرخيم :

ـ اجل من اجل «غادر» .. تهون المصاعب .

ونظر الىٰ عينيها العسليتين :

ـ ما هو رأيك.

ـ ...

هتف هارون وهو يكاد يطير نشوانا :

ـ اين القاضي ؟!

سرعان ما حضر (فقيه الأرض) و(قاضي القضاة).. من اجل أن يصنع لشهوة الخليفة ثوباً من الدين.. وتم كل شيء..

صفق خليفة المسلمين وهو يرسل نظراته الىٰ ابي يوسف :

ـ اعطوه مئة الف درهم!

وكاد ان يسيل لعاب القاضي وهو يحمل صرار الفضة.. عرق الفقراء القادم من ربوع مصر وتخوم خراسان..

اسدلت الستائر وقد سقطت التفاحة الشهية في قبضة هارون..

غادر تضع رأسها في حجر هارون.. تغفو سكرىٰ وهارون يتأمل نشواناً وجهها المشرق وشبابها وقبل أن يشرق الصباح سكتت شهرزاد عن الكلام المباح.

انسلّ هارون من بين الوسائد بعد أن اراح رأس محظيته فوق وسادة حريرية.. ارتدىٰ حلّة جديدة يغلب عليها السواد، واكتسىٰ وجهه الثلجي قدراً من الصرامة والقسوة.. اصبح وجهه

مخيفاً.. لو رأته «زبيدة» لانكرته ولفرّت منه «غادر» و«ماردة» و«هيلانه»، و«خالصة» ولانكرته حتىٰ امّه «الخيزران».

قطع هارون الرواق بخطىٰ واسعة، كان مسرور واقفاً في وسط البلاط كتمثال، بدا بطوله الفارع جنّياً خرج توّاً من البحر.. سيفه العريض العاري يشبه قدراً صارماً.

صفّق هارون بكفّيه.. انتبه المارد.. وانطلق الىٰ بوابة البلاط..

دخل ثلاثة رجال ملثمون.. جمعهم المكان فقط لا أحد يعرف الآخر، ولا يودّ أن يعرفه.. كانوا يرتدون ازياء مختلفة تماماً، كان الأول يرتدي ثياباً تشبه ثياب الملاحين، والآخر يرتدي حلّة لا يرتديها سوىٰ التجار أما الثالث فقد بدا رجلاً حجازياً قادماً من مكة أو المدينة..

شيء واحد يجمعهم هو بريق العيون.. كانت عيونهم نفّاذة يموج فيها بريق زجاجي.. اشبه ما تكون بعيون رجال علىٰ وشك تنفيذ مؤامرة دنيئة..

اجتمع الخليفة مع الثلاثة علىٰ انفراد.. الصمت يهيمن فوق المكان.. ما خلا همسات تشبه فحيح الأفاعي.. مرّت ساعة قبل أن ينصرف الرجال الملثمون.. اخذوا معهم صراراً ملأىٰ بمسكوكات فضيّة وذهبية.. وحفظوا عن ظهر قلب مهمّات

غامضة.. واسماء لها في قلب الخليفة هواجس.. إدريس.. يحيىٰ..
موسىٰ..

وقف هارون في شرفة القصر ينظر من بعيد الى دجلة وقد بدا في تلك الساعة المتأخرة من الليل ثعباناً ينساب بحذر بين اشجار النخيل.

وفي تلك الليلة انفتحت ثلاثة أبواب لبغداد، انفتحت بوابة خراسان، وبوابة الكوفة وبوابة الشام..



10

قليلون جداً الذين عرفوا لماذا حجّ الخليفة هارون هذا العام ماشياً[17] .. بعضهم اعتقد ان التديّن في صميم قلب هذا الشاب الهاشمي وآخرون قالوا: انها توبة الىٰ الله وعفا الله عمّا سلف.

ولكن هناك من سبر غور هذا الحج الىٰ حدّ ما خاصّة وصائف «غادر» اللائي استقبلن النبأ بشيء من الغبطة لسيدتهن الحسناء، التي استحوذت علىٰ قلب خليفتين.

وفي كل الأحوال فقد شاع الخبر في انحاء بغداد، وخرج بعض الأهالي لتوديع الخليفة، ووقفت النسوة في شرفات المنازل يترقبن موكب الخليفة..

القىٰ هارون نظرة وداع علىٰ بغداد وقد فصلت القافلة.. بدت العاصمة كلؤلوة خرجت توّاً من صدفتها الجميلة..

كانت عدّة خيول وبغال تحمل الأثقال ريثما تصل القافلة «الكوفة» وهناك يمكن استئجار جمال قويّة لاختراق الصحراء..

نسائم ربيعية تهب من ناحية الشمال، مضمخة بشذىٰ الرياحين.. وقد بدت الكوفة في الأفق البعيد نقطة سوداء كانت تكبر شيئاً فشيئاً كلما تقدّم الركب.

كان هارون يجد نفسه مرتاحاً جداً مع جعفر الذي يصغره بعام واحد.. لعله كان يجد نفسه في مرآة ذلك الشاب الطموح الذي يُقبل علىٰ الحياة يقتطف ملّذاتها باستمتاع.. لهذا استصحبه..

كان جعفر هو الآخر يعرف كيف يستحوذ علىٰ هارون باحاديثه البعيدة عن كل الرسميات..

هوت الشمس في المغيب وقد اطلّ الركب علىٰ الكوفة، فضُربت الخيام والسرادق.. وكانت خيمة هارون وجعفر علىٰ ربوة جميلة انتخبها جعفر.. وانطلق الخدم لتأثيثها وتوفير اسباب الراحة واللهو.. فيما انتشر الحرّاس هنا وهناك لاختيار اماكن الحراسة والخفارة.

هبط المساء وسطعت النجوم في السماء.. وهبّت نسائم منعشة تبعث في النفس الحيوية والبهجة والاقبال علىٰ الحياة.

كان «خليفة المسلمين» يتوضأ بابريق بلّوري مرصّع

بالجواهر ، وقد اشرق الهلال بلياليه الثلاث ، بدا مبتسماً وتذكر الخليفة ابتسامة جاريته الحسناء «خالصة» تلك الفاتنة التي لاتكفّ عن تسديد نظراتها الساحرة .

انهىٰ الخليفة صلاته ، وكانت رائحة الشواء تملأ الفضاء .

كان «جعفر» يشرف بنفسه علىٰ اعداد المائدة . . انه يعرف كيف يدخل الىٰ قلب الخليفة .

هناك مسارب يعرفها جيداً . . احدها البطن . . اصطفّت الأواني باشكالها الجميلة . . وفاقت الوان الطعام العشرين . . لحوم طيور من بلاد بعيدة . . وألسنة السمك . . وفواكه ، وهناك في ركن المائدة صحون «الفالوذج» وهلمّ جرّا . .

وقع نظر هارون علىٰ صحون السمك فوجد لحومها قطعاً صغيرة استدعىٰ الطباخ وقال بلهجة يشوبها تذمّر :

ـ ألم أعهد اليك أن لا تكون قطع السمك صغيرة ؟ !

أجاب الطبّاخ معتذراً . .

ـ يا أمير المؤمنين . . هذه ألسنة السمك ، وضعتها لتكون زينة للمائدة !

علّق البرمكي :

ـ لقد كلفت وحدها أربعة آلاف درهم !

سكت الخليفة علىٰ مضض ، وادرك أن جعفر يحاول أن يقول أن هذا اسراف لا طائل من ورائه . .

قال جعفر وهو يرىٰ هارون يتلذذ بأكل الفالوذج :

ـ ماذا قالت العرب يا أمير المؤمنين في الفالوذج ؟

شرق الخليفة بضحكة :

ـ ويلك ومن أين للعرب فالوذج ؟ !

وضحكا معاً ضحكات فيها سخرية ؟

أحضر الخدم صندوقاً جميلاً مصنوعاً من خشب الأبنوس مرصع بالياقوت . . فتح البرمكي الصندوق واخرج بعنايةٍ بيادق الشطرنج وبرقت عينا هارون بهجة . .

اصطفت بيادق الجنود والفيلة . . وبدت الحُصُن متحفّزة . .

فرك الخصمان أيديهما وبدأ الصراع . .

حرّك جنوده . . وحصانيه . . وانقض البرمكي بالوزير . . راح الوزير يتحرك يميناً وشمالاً فتساقطت الجنود . . وتهاوت القلاع وها هو ينقض على الملك . . تطلّع هارون حائراً .

هبّ الفيلان الأبيض والأسود . . ولكن دون جدوىٰ .

ومضت عينا البرمكي وهتف منتشياً بانصاراته .

ـ سيبقىٰ الوزير هو الأقوى!

رمقه هارون بنظرات حانقة.

ـفي الشطرنج فقط..

وأردف وهو يزيح البيادق من فوق الصندوق:

ـوفي ماعدا ذلك فلا قيمة له.

سكت البرمكي وتظاهر بالابتسام.. وراح يملأ للخليفة كأساً من النبيذ..

وهكذا مضىٰ شطر من الليل..



11

تنفس الصبح .. بينما كان هارون وصاحبه في طريقهما الىٰ «الكوفة» ودخلا المدينة علىٰ حين غفلة من اهلها .. كـانا يـرتديان زي التجار .

ما أن اشرقت الشمس حتى كان سوق المدينة يغصّ بالباعة والمبتاعين والعابرين .. وغاب الخليفة في زحمة الناس .. أرهف اذنيه للأحاديث العابرة .. كان يود أن يسمع صدىً لثناء أو مديح أو تمجيد للخليفة هارون الرشيد الذي عزم علىٰ الحـج هـذا العـام ماشياً .. ولكنه لم يسمع شيئاً وأثار اهتمامه احاديث مقتضبة عن ضريبة العشر التي باتت ثقيلة علىٰ الأهالي .. ولمح عن قرب أحـد حرّاسه يسأل عن «صفوان الجمّال» ..

همس جعفر وهو يشير الىٰ رجل عليه سيماء الزهد :

ـ اتعرف ذاك الرجل ؟

ـ لا .. ومن يكون ؟

ـ بهلول المجنون .

ـ وهل هو مجنون حقاً ؟

ـ لا يبدو عليه ذلك .. ولكن تذكرت ما حدث ذات يوم في حضرة اخيك..

ابتسم جعفر وأردف :

ـ استدعاه ذات مرّة وأمر باحضار رجل آخر من أهل البصرة يدعىٰ «عليّان» .. وكان هو الآخر يرمىٰ بالجنون .. فبدره «الهادي» قائلاً : أيش معنىٰ عليّان ؟ ! فاجابه بقول أدهش الحاضرين .

تساءل هارون :

ـ وماذا قال له ؟

ـ قال له : أيش معنىٰ موسىٰ أطبق .. فثارت ثائرة «الهادي» وصاح به : يا بن الفاعلة ! فالتفت عليّان الىٰ بهلول ، وقال : كنا اثنين فصرنا ثلاثة ..

تذكر هارون أخاه .. يوم كانا صغيرين ، وكان أبوهما قد وكّل به موظفاً يرقب فم أخيه .. فاذا ذهل عن نفسه وفتح فمه وظهرت شفته المشقوقة قال له : موسىٰ اطبق ..

كان الرشيد غارقاً فى ذكرياته عندما ظهرت فجأة جنازة يحملها بعض الشبّان .. وسمع أحدهم يقول : هذه جنازة والبة بن الحباب[18] .. فردّ آخر قائلاً : لقد أراحنا الله من هذا الزنديق الماجن لقد افسد فتياننا بتحلّله واقباله على الخمرة ..

ردّ آخر ساخراً : اذا كان خليفة المسلمين ايّده الله يعاقر الخمرة فلا بدّ وأنها حلال ..

تبادل هارون وجعفر النظرات .. وانصرفا الىٰ مكان آخر من السوق ..

وعندما وصلا أطراف السوق لاحت لهما قافلة من الجمال تأخذ طريقها الىٰ خارج الكوفة .. حيث ضربت خيام الخليفة..

انتظمت القافلة وكانت الجمال تحمل الاثقال .. ووجد هارون نفسه يمشي في فلاة مدّ البصر .

لم يعد هناك أثر لعمران ولا شجر ما خلال باسقات النخيل تبدو من بعيد كرموش حسناء .

ومض طيف غادر فتساءل في نفسه : اتستحق كل هذا العناء؟! وطرد عن ذهنه هذه الفكرة ففي الحج منافع كثيرة .. سمعة حسنة ، وخداع للعامّة ، والوقوف علىٰ أحوال الناس ، ومعرفة ما يجري في الحجاز ..

غمر المساء الاشياء وسطعت النجوم في اغوارها السحيقة وانفتحت نفس هارون علىٰ الغناء فانطلق يردد اشعاراً علىٰ لحن

ابن سريج :

ملك الثلاث الآنسات عناني .

وحللن من قلبي بكل مكان .

مالي تطاوعني البرية كلّها .

واطيعهن وهنّ في عصياني .

ما ذاك الا ان سلطان الهوىٰ .

وبه قوين اعزّ من سلطاني .

وانطلقت القافلة تطوي المسافات الىٰ مكّة المكرمة تحرسها حراب وجنود . .

هارون تتقاذفه الهواجس ، تحتدم في رأسه الافكار كخيول مجنونة . . فهناك رجال من أبناء علي يجوبون المدن ، في قلوبهم تشتعل الثورات . . ولكن ما باله قلق هكذا يتوجس خيفة ؟

كان هارون غارقاً في هواجسه تومض في ذهنه اسماء رجال غابوا في الآفاق . ادريس . . يحيىٰ . . موسىٰ . . وقطع عليه هواجسه صوت حاجبه يقترب منه محيّياً :

ـ السلام علىٰ أمير المؤمنين وابن عمّ سيّد المرسلين . .

وشعر هارون بالكلمات تأخذ طريقها الىٰ قلبه أنه يستمد سلطانه من قاعدة قويّة لقد ورث السلطان عن مؤسس الإسلام

فهو حفيد العباس عم النبي . . وليس هناك من هو أحق بـالخلافة والملك منه .

سأل هارون حاجبه عن المسافة التي تفصلهم عن مكّة ، وعندما عرف انها مجرّد أميال انشرحت نفسه فقد أوشكت رحلة العناء علىٰ النهاية . .



12

انطوىٰ موسم الحج .. وعادت القوافل الىٰ الديار .. تهوي في بطون الأودية ومضىٰ الخليفة هارون الرشيد يقطع المسافات صوب الشمال يحفه حرّاس وجنود .. خلع ثياب الاحرام وارتدىٰ حلّة سوداء بدا فيها ملكاً مرهوباً ..

وصل هارون مشارف المدينة المنوّرة ، وقد هبّ لاستقباله حاكم المدينة إسحاق الذي تسنّم منصبه حديثاً ، ومعه قائد الشرطة ومئات الحرّاس ..

اضحىٰ منظر هارون اكثر رهبة ..

الذين لم يعرفوا هارون خلطوا بينه وبين جعفر البرمكي فقد حرص أن يدخل المدينة هو الآخر في أبهة الملك ، كان يرتدي حلّة سوداء مزركشة يحوطه جنود من خراسان ..

اصطفّ عشرات الرجال والنساء وحشود الاطفال يتطلعون الىٰ خليفة المسلمين هارون الرشيد ، وهو يتقدم الهوينىٰ الىٰ مسجد الرسول ﷺ .

ولج هارون مسجداً أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم .. هيمن صمت مهيب ، وقد فاحت في الفضاء رائحة طيبة لكأن الجنّة قد فتحت نوافذ لها علىٰ الضريح .. في هذه البقعة الطيبة يرقد نبي الإسلام محمد .. محمد الذي اضحىٰ نغمة حلوة ترددها الملايين في الصحاري والسهول في آلاف المدن والقرىٰ .. في السهول والوديان وفي ذرىٰ التلال ..

وقف هارون قبالة الضريح المضمخ بشذىٰ النبوّات هتف مؤكداً صلته العريقة بمؤسس مجد الإسلام ..

ـ السلام عليك يابن العم !

هيمن صمت مهيب وشخصت الأبصار لهارون ، ها هو يتربع علىٰ الدنيا والدين ، ها هو يهيمن علىٰ الأرض معتدّاً بصلته في السماء .. وفي تلك اللحظات وقع ما لم يكن في الحسبان ..

تقدم رجل اسمر قد ذرّف علىٰ الاربعين .. يتألق في جبينه نور لنبوّات غابرة هتف بصوت دافئ مخاطباً آخر الأنبياء في التاريخ :

ـ السلام عليك يا أبتِ ..

ذعر هارون وقد احس بأن عرشه يهتزّ بعنف ترىٰ من يكون هذا المجتريُ الذي دمّر في لحظة كل مزاعم خليفة الزمن ، وقد سام الناس قهراً . .

احدّ هارون النظر الىٰ الرجل الأسمر وقال بلهجة حانقة :

ـ من اين لكم هذا الأدعاء يا أولاد علي . . ومتىٰ ولدكم رسول الله .

سكت هنيهة واردف :

ـ نحن أقرب الىٰ رسول الله منكم .

اجاب سليل الأنبياء :

ـ لو بعث رسول حيّاً وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه؟

قال هارون بدهشة :

ـ سبحان الله ! بل كنت أفتخر بذلك علىٰ العرب والعجم .

قال موسىٰ وهو يهز القاعدة التي يرتكز عليها هارون :

ـ لكنه لا يخطب مني ولا ازوجه . . لأنه ولدني ولم يلدك . .

تساءل هارون بلهجة فيها حقد :

ـ انتم أولاد علي لا أولاد رسول الله . . أنتم ابناء فاطمة ، والنبي ليس له عقب . . انما العقب للذكر لا للأنثىٰ ! ! !

واحسّ هارون بأنه قد احرز نصراً ضد خصمه الذي يهدّد عرشه .

قرأ الذي عنده علم الكتاب بصوت شجي:

ـ «ومن ذرّيته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ والياس كلٌّ من الصالحين . . .» .

والتفت الىٰ خليفة الزمن الموحش سائلاً ؟

ـ من أبو عيسىٰ ؟

ـ ليس له أب .

فقال موسىٰ :

ـ انما أُلحق بذراري الانبياء عن طريق أمه مريم . . وكذلك نحن ألحقنا بذرّية النبي عن طريق امّنا فاطمة . .

وخشعت القلوب المؤمنة لذكرى فتاة بتول كانت عديلة مريم ابنة عمران . . مايزال قبرها مجهولاً يرسم علامة استفهام كبرىٰ علىٰ تاريخ طويل . . تاريخ ضيّع حقّها وابناءها .

اضاف ابن فاطمة يسدّد الضربة القاضية لكل ترّهات هارون:

ـ وان شئت أزيدك .

قال هارون وهو يرفع راية الهزيمة :

ـ نعم يا أبا الحسن !

وانسابت كلمات السماء ممزوجة بصوت سماوي فيه حزن المطر :

ـ «فمن حاجّك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علىٰ الكافرين» . . . فهل سمعت في ما ورد من الأخبار ان رسول الله دعا أحداً غير فاطمة وعلي وسبطيه الحسن والحسين ؟

اطرق هارون واحسّ الصفعة قد دمّرت كلّ كبرياءه وغروره.. ها هو يقف عاجزاً . . وبدا هارون بحلّته السوداء فرعوناً ينظر بفزع الى موسىٰ وعصاه . .

13

ليل المدينة .. مدينة الرسول .. يزخر بالنجوم .. ونسمات طيبة تهبّ فتبعث في النفوس احساساً بالأمل .. نامت العيون .. وماتزال النجوم تنبض في أغوارها السحيقة كعهدها منذ آلاف السنين .

موسىٰ يجوس خلال الأزقة كطيف مضيء يحمل معه صراراً ملأن بقطع فضيّة .. وفي المنعطفات المظلمة حيث تبدو بعض منازل المدينة خاوية على عروشها كان الرجل الأسمر الذي تتألق في وجهه طيوف النبوّات يتوقف فيرمي باحدىٰ الصرار لتسقط خلف جدار يكاد أن ينهدّ ..

الرجل الذي ذرّف علىٰ الأربعين ينوء بالهموم .. تومض في اعماقه صور المحرومين والمقهورين .. يحزّ في نفسه انه لا يجد

ما ينفق ، وارضه تعطي عاماً وتمنع عاماً . . وهناك رجال في غياهب السجون مايزالون يحلمون الحريّة والحياة الكريمة ورجال خائفون . . يجوبون المدن الغريبة بحثاً عن بقعة آمنة . .

وها هو هارون يحمل معه بدار الذهب ، يسرق خيرات الأرض له ولأعوانه . . تتدفق عليه الأموال من كل حدب وصوب ، والغيوم التي تسحّ في أرض مصر وافريقيا وفي خراسان وسجستان وفي بلاد الديلم وشيراز والعراق . وفي كل بلد يذكر فيه اسم الله كثيراً . . تؤتي ثمارها في قصور هارون في دجلة والرقة والأنبار . . وبغداد تغفو علىٰ الحان فارسية .

اما لهذا الليل من نهاية ؟ متىٰ يعود المشرّدون الىٰ ديارهم ؟ ومتىٰ يستنشق المكبّلون بالسلاسل انسام الحرّية ومتىٰ يشبع المحرومون خبزاً طيباً ؟

ومتىٰ يطمئن أولئك الخائفون في ذرىٰ الجبال والمغاور والكهوف ويعودوا الىٰ أهلهم وينقلبوا بنعمة الله لا يمسهم قرح؟ . .

وجد الرجل الأسمر قلبه يهفو الىٰ مسجد أسس علىٰ التقوىٰ.. الىٰ حيث كان يصلّي جدّه العظيم . . .

الظلام مايزال يغمر المدينة ، شعر بانه يلج بقعة فردوسية . . تدفق نبع من الصلاة بين المحراب والمنبر . . وانسابت كلمات السماء تغسل القلب وتطهّر الروح . .

وهوىٰ الرجل الأسمر في سجود من ينوء بآثام البشرية ، وانبجست الدموع من عينيه وهو يخاطب المطلق اللانهائي :

ـ عظم الذنب من عندي ، فليحسن العفو من عندك . .

يا أهل التقوىٰ ، ويا أهل المغفرة . . .

هيمن سكون مهيب ملأ المسجد برهبة الساعات الأخيرة من الليل . . ومايزال العبد الصالح ساجداً للربّ .

وبدا العبد الصالح ببدنه النحيف المنصهر في بوتقة السجود ثوباً مطروحاً تركه صاحبه ومضىٰ بعيداً . .

ليس هناك في كل ذلك العالم من يدرك آلام موسىٰ . . عذابات العبد الصالح . . الإنسان الذي يحاول أن يقهر الشيطان الرابض في اعماق النفوس المظلمة . . يريد للأرض أن تخضرّ . . ولفراشات النور أن تعود . . وللسحب الرماديّة أن تغادر الافق أمام ربائب المزن المثقلة ببركات السماء .

هو ذا ذاهب الىٰ «هارون» انه طغىٰ . . سيوف وحراب مشهورة وقد وقف حرّاس غلاظ بوجوههم المتجهّمة ؛ تشتعل في عيونهم رهبة الملك وسطوة الجبابرة . .

وجاء موسىٰ . . ليس معه من اسلحة الدنيا سوىٰ قلب يكاد يسع العالم . . في عينيه يتألق حزن سماوي ، وفي جبينه تموج

طيوف نبوّات غابرة .

كـان هـارون يـنثر بـدار الذهب والفـضة ، ويـتظاهر بـردّ المظالم، قال له موسىٰ :

ـ ما بال مظلمتنا لا تُردّ ؟ !

قال الذي أوتي من المال كنوزاً :

ـ ماذا تعني ؟

قال الذي عنده علم الكتاب :

ـ اعني فدكاً .

قال هارون في نفسه : ما ابخس ما يـريده مـوسىٰ وأردف باستعلاء كمن يدلّ بثراء عريض :

ـ حدّها لأردّها !

قال موسىٰ :

ـ انك لن تردّها ان حددتها .

قال هارون بضيق :

ـ بحق جدّك الّا فعلت .

قال له موسىٰ وقد ارتسمت في ذهنه خارطة الإسلام :

ـ حدّها الأول عدن .

شعر هارون بخنجر ينفذ في ضلوعه .

قال موسىٰ :

ـ وحدّها الثاني سمرقند .

اربدّ وجه هارون فيما كان موسىٰ يستعرض خارطة فدك المغتصبة :

ـ وحدها الثالث افريقيا .

هتف هارون بغيظ :

ـ هيه !!

ـ وحدّها الرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينيا .

انفجر هارون :

ـ لم يبق لي شيء .

قال موسىٰ غير آبه :

ـ اعرف انك لا تردّها .

غادر موسىٰ المكان ، وقد خيم صمت رهيب . . ظل هارون واجماً ذلك النهار ، ها هو موسىٰ يهزّ عرشه بقوّة .

تفجّرت في اعماقه آلاف المخاوف . . آلاف الهواجس واستيقظ الوحش في اعماقه كاسراً مدمّراً . . وهتف في اعماقه: سوف اقتل موسىٰ وليدعو ربّه .

بدا هارون بحلّته السوداء فرعوناً يفكر في أمر موسىٰ من اين له كل هذه الجرأة؟ ! وكل هذه الكلمات المدهشة ؟ وكل هذا السحر العجيب ؟



14

عاد هارون الىٰ بغداد.. غانية الشرق.. ماتزال تغتسل في مياه دجلة، تتألق جمالاً.. فوّارات المياه تنثال في فضاء أزرق.. حدائقها تزهو خضرة.. وقصورها تتألق كأصداف برّاقة..

بغداد سكرىٰ علىٰ انغام دجلة.. اسواقها تكتظ بفتيات جميلات جئن من اصقاع بعيده، في عيونهن سحر وفي افواههن كؤوس خمر وفي اصواتهن قصائد شعر..

هارون بموكبه الملكي يعبر جسر «النساء»[19] يتوقف أمام ساعة كبيرة فرغ من صنعها حديثاً.. ساعة عجيبة تحكي قصة الوقت لزمن نحاسي.. ومن يمعن النظر اليها لوجدها تتألف من اثني عشر باباً صغيراً بعدد الساعات. وكلما مضت ساعة انفتح باب، وخرجت منه كرات نحاسية صغيره تتساقط فوق جرس

فيرنّ بعدد الساعات وتبقىٰ الأبواب مفتوحة ، وعندها تظهر تماثيل صغيرة لاثني عشر جندياً علىٰ خيل تدور علىٰ صفحة الساعة[20] . .

انه زمن النحاس زمن الثراء والغناء والليالي الحمراء . .

لقد غابت الروح ومضى زمن الحب العذري . .

فرّ السلام . . وحلّ في الأرض خوف ورعب . . وهارون يصنع من النحاس عصراً ذهبياً يكاد سنا برقه يذهب بالالباب .

حانت الساعة الواحدة ، وانفتح باب وسقطت كرة النحاس.. دقت الساعة الواحدة . . لقد بدأت ساعة الصفر وبدأ عصر الزمهرير.. سيلفّ الأرض خوف ورعب من اجل أن يعيش هارون ناعم البال منتشياً في احضان جواريه الحسان .

بغداد سكرىٰ علىٰ الحان الغناء . . لم تسمع في تلك الليلة وقد غاب القمر عواء الذئاب البشرية وهي تجوب أزقّة بغداد . .

هارون يخشىٰ موسىٰ وقومه . . لم يذق طعم الرقاد في تلك الليلة . . يكاد رأسه أن ينفجر . . آلاف الهواجس تدور في رأسه كخيول مجنونة . . شعر برغبة عارمة في ان يعبّ الخمرة ولكن أنّىٰ له ذلك ، وقد انتقض عليه الغزل في طنجة وفاس ، وقد نهض بالأمر ادريس . . ادريس الذي نجا من «فخّ» . . يؤسس دولته . . وقد التف حوله البربر[21] . .

وضع هارون كفّه علىٰ جبينه . . الصداع يكاد يحطم

جمجمته لكأن ملايين الخلايا تضجّ في رأسه تبحث عن كأس شفافة تشوبها حمرة خفيفة ..

نظر هارون الىٰ وزيره ، كان البرمكي يدرك ما يدور في خلد هارون قال بنبرة أودعها كل دسائسه :

ـ انا أكفيك أمره .. لقد ارسلت وراء «سليمان الجزري» .

ارتسمت علامة استفهام في عيني هارون :

ـ كيف وهو من متكلمي الزيدية .

ابتسم البرمكي ابتسامة فيها مكر :

ـ يا أمير المؤمنين الذهب سيّد المتكلمين .. وددت انك شاهدته وهو يتلجلج أمام بريق الذهب .

تساءل هارون :

ـ وماذا في مقدوره أن يفعل ..

قال البرمكي بخبث :

ـ اعطيته قارورة طيب وطلبت منه أن يهديها الى ادريس .. لقد كان معاوية يهدي خصومه «العسل» ونحن نهديهم «الطيب» .

ابتسم هارون بمرارة ، ولكنّه شعر بأن همّاً ينزاح عن كاهله.. لشدّ ما يخشىٰ ابناء علي ، قال البرمكي وقد وجد الظرف مناسباً تماماً :

- رحم الله جدّك المنصور .. لقد ترك الناس ثلاثة اصناف .. فمنهم في غياهب السجون لا يفكرون إلّا بالحريّة .. يحلمون بالعودة الىٰ أهليهم يتمنون رؤية السماء الزرقاء .. ومنهم الجياع .. بطونهم خاوية طول النهار لا يفكرون إلّا برغيف الخبز ومنهم الخائفون المشرّدون .. في المغارات والاصقاع البعيدة.. قد جلدتهم قسوة الغربة عن الأهل والديار فلا يرجون شيئاً سوىٰ - الطمأنينة والأمن .. والسلام .

كان هارون يصغي الىٰ البرمكي .. رفع اليه عينين فيهما تساؤل عما ينبغي فعله .. قال البرمكي بعد ان سكت قليلاً :

- انني اخشىٰ هؤلاء العلويين .. لقد استوطنوا بغداد واصبحت لهم أملاك وبساتين .. والناس اليهم أميل وهم علىٰ فقرهم اسخياء .. أرىٰ أن ترحّلهم عن بغداد يا أمير المؤمنين[22] .

دخل «مسرور» بجثته الهائلة وهمس في أذن الخليفة كلمات...

قال هارون :

- ليدخل .

مضت لحظات قبل أن يلج رجل يرتدي ثياباً رثّة ، عيناه لاتستقران علىٰ شيء تقدّم متعثراً ، وهمس مرتبكاً :

- النصحية يا أمير المؤمنين .

ـ تكلّم !

ـ انها من أسرار الخلافة .

نظر هارون الى وزيره نظرات آمرة لم يبق أحد غيرهما قال الرجل بصوت خافت فيه صدىً لفحيح مسموم :

ـ الأمان أولاً ..

ـ هات ما عندك :

ـ رأيت يحيىٰ ..

ـ ابن عبد الله !

ـ نعم .

هتف هارون بلهفة :

ـ أتعرفه ؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين .. كان يرتدي قميصاً من الصوف غليظاً ..

ـ وما أدراك انه يحيىٰ ؟ !

ـ كنت أعرفه قديماً وعندما رأيته بالأمس عرفته .

ـ صفه لي !

ـ مربوع ، اسمر حلو السمرة جميل العينين حسن الوجه والجسم .

ـ صدقت انه هو .. أين رأيته ؟

ـ في خان من خانات حلوان .

ـ اسمعته يقول شيئاً ؟

ـ لا .. غير اني رأيته ، ورأيت معه غلاماً لا اعرفه .. وكان معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرتحلون اذا رحل ويكونون معه ناحية فيوهمون من رآهم انهم لا يعرفونه ولكنهم أعوانه .

ـ من انت ؟

ـ رجل من ابناء هذه الدولة .. أصلي من مرو ومنزلي ببغداد..

ـ سوف احسن اليك .. فانطلق وكن ليحيىٰ مثل ظلّه فاكتب لي اخباره .

15

بدا هارون عصبياً، كل ذرّة في كيانه تضجّ الىٰ الخمرة وكؤوس اللذة.. هارون يريد أن يغرق ينسىٰ كل همومه.. ينسىٰ ادريس ويحيىٰ.. ينسىٰ موسىٰ.. ولكن من الحماقة أن يترك دولته ويغرق في السكر.

ليضرب ضربته ثم يحتفل.. ومض في ذهنه طيف لجدّه بحلّته السوداء وقسوته وسيفه الذي لا يكاد يفارقه.. التفت هارون الىٰ وزيره الرجل الذي بشّره ذات مساء بالملك العريض هتف هارون بغيظ:

ـ لا أريد أن أرىٰ علويّاً في بغداد بعد الآن.. لا تدعوا فيها أحداً صغيراً ولا كبيراً..

هيمن وجوم علىٰ المكان..

انحنىٰ الوزير انحناءة خفيفة هتف الخليفة وقد اشتعلت

عيناه:

ـ أريد أن يتم الأمر هذه الليلة .

ـ اطمأن يا سيدي ..

ـ لا تنسىٰ أن ترسل لي جعفراً .

ابتسم الوزير .. وقد ادرك ان ابنه قد نفذ الىٰ قلب الخليفة :

ـ سأفعل ذلك يا مولاي ..

غادر الوزير المكان .. صفق الخليفة بكفّيه كأنما يعلن عن مشهد آخر .. مشهد يختلف تماماً عمّا كان عليه قبل لحظات.. اختفىٰ الحرّاس وراء الابواب . اقبل سرب من الجواري كغزلان واطباق الطعام وآنية الخمر ..

وجاء جعفر يرفل بحلّته الحريرية .. اتخّذ مكانه الىٰ جنب الخليفة الذي هبّ الىٰ لقائه بشوق ..

الفتيات الجميلات يرفلن بحلل مزركشة بالذهب في وجوههن تموّج فتنة .. اتّخذت «هيلانة» مكانها فوق كرسي واحطن بها الجواري .. مسّت العود بانامل ناعمة .. وانسابت الانغام .. انغام موسيقىٰ حالمة وكلمات بشرية ناعمة :

ـنظرت عيني لحيني   وزكا وجدي لبيني

من غزال قد سباني   تحت ظلّ الدرتين

سكب الماء عليه   بأباريق اللجين

دارت الكؤوس ، وحلقت النفوس ، في عوالم مفعمة باللّذة والمتع السفلية ، وبدا الخليفة كائناً مسّته شياطين الشهوة .. الجواري يتضاحكن .. يتغامزن ..

الكؤوس ماتزال تدور وهارون أصابه الدوار .. عشرات الصور تومض في رأسه المثقل بخمرة معتّقة .. استقرت في مخيلتهصورة لحسناء جميلة .. تخلب اللب قال بلهجة مخمورة :

- ما اسم الجاريه التي اشتريتها بالامس يا جعفر ؟!

عبّ جعفر بقية كأسه وقال مخموراً :

- وما تريد من اسمها .. لها ألف اسم واسم ..

آه لو رأيت ساعديها وزنديها .. آه لو رأيت ...

شبّت نار الشهوة في أعماق هارون :

- بعها .. اعطيك وز نها ذهباً وفضة .

- اتراني احتاج الى الذهب أم الى الفضة ؟!

- اذن هبها لي :

- ولماذا اهبها لك .. قل لي بربك ماذا تصنع بها ولديك آلاف الجواري الحسان ..

اطلق جعفر ضحكة متهتكة واردف :

- وزبيدة .. ألا تخشىٰ أن تغضب منك ؟!

اشتعلت حمى الشهوة في نفس هارون هتف بضيق :

ـ زبيدة .. زبيدة طالق ثلاثاً اذا لم تبعها أو تهبها لي قهقهت جارية بصوت فيه اصداء غنج ..

اعتدل جعفر مترنحاً وصاح مخموراً :

ـ زوجتي طالق ثلاثاً ان بعتها لك أو وهبتها ..

الجواري يستغرقن في ضحكات ناعمة .. وانطلق صوت ناعم يصدح في ظلمة الليل :

ـ وسواعد تزهو بحسن اساور .

كالنار تضرم فوق ماء جار .

فكأنما والتبر محتاط بها .

ماء تمنطق معجباً بالنار .

أفاق هارون من نشوته .. استيقظت في اعماقه حمّىٰ الخلافة.. لقد طلّق زوجته .. في نوبة سكر .

ترىٰ ماذا سيفعل وهو أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ؟

التفت الىٰ جعفر .. جعفر مايزال ثملاً قال الخليفة بشيء من الجدّ :

ـ لقد وقعنا في مأزق .. كلانا طلق زوجته !

ـ همس جعفر متصنعاً الجدّ :

ـ حقاً ؟!

هذه مشكلة ليس لها غير ابي يوسف . .

بغداد غارقة في منتصف الليل . . كل شيء بدا ساكناً سكون المستنقع ، ما خلا خطىٰ احذية الحراس الثقيلة تتجه الىٰ بيت قاضي القضاة .

دقّات عنيفة تمزّق صمت الليل ، هبّ القاضي من نومه فالفىٰ حرّاس الخليفة يحملون مشاعل وقد اكتست وجوههم رهبة . .

مثلما تغادر الخفافيش الكهف المظلم ، تراكضت افكار القاضي وهو يرتدي حلّته الرسمية لا بدّ وأن أمراً عظيماً قد حدث في الإسلام والّا لم يطلبه الخليفة في هذه الساعة المتأخرة من الليل!

هتف بغلامه :

ـ لا تنس أن تأخذ معك مخلاة البغلة . . فلعلّها لم تستوف عليقتها .

ـ سمعاً وطاعة .

امتطىٰ القاضي بغلته ، وضع كمه علىٰ أنفه يتوقىٰ نسائم خريفية تبشّر بشتاء قارس البرد .

نهض هارون لاستقبال قاضيه . . ليس هناك من هو أفضل من هؤلاء القضاة . . انهم يعرفون كيف يجعلون من الحلال حراماً ومن الحرام حلالاً . . هناك ما يشبه الصفقة بين الرجلين . . فالقاضي يعشق الذهب والجاه ، والخليفة يحتاج الىٰ عباءة القاضي . . ورضا القاضي من رضا الله !

كانت رائحة الخمرة ماتزال تفوح فتمتزج مع رائحة عطور غالية .

اصغىٰ قاضي القضاة الىٰ مشكلة الخليفة . . اعتصم جعفر بالصمت وكان يراقب من زاوية عينه . .

قال الخليفة :

ـ وهكذا عجزنا عن تدبير الحيلة . .

برقت في عيني القاضي نشوة الانتصار :

ـ يا أمير المؤمنين الأمر أسهل ما يكون .

التفت ابو يوسف الى الشاب البرمكي :

ـ يا جعفر بع لأمير المؤمنين نصفها وهب له نصفها الآخر .

وهكذا سوف تبرّان في يمينكما .

هتف جعفر ثملاً :

ـ لقد بعت أمير المؤمنين نصف جاريتي ووهبته نصفها

الآخر.

هتف هارون جذلاً:

- احضروا الجارية في هذا الوقت فاني شديد الشوق اليها.

وجاءت الجارية تمشي علىٰ استحياء.

اشتعلت حمىٰ الشهوات في عيني هارون فقال لابي يوسف هامساً:

- اريد وطأها في هذا الوقت..

- ألا تنتظر يا أمير المؤمنين حتىٰ تمضي مدّة الاستبراء؟!

- كلّا لا اطيق الصبر عنها.. فهل عندك في هذا حيلة؟

فكر القاضي.. راح يبحث في تلافيف مخه عن مسوغ.. عن حيلة تسدّ جوع أمير المؤمنين!

ومضت في عيني القاضي بروق الانتصار هتف:

- ائتوني بمملوك من مماليك أمير المؤمنين لم يجر عليه العتق.

ما هي إلّا صيحة واحدة حتىٰ وقف عبد بقامته الفارعة، قال القاضي:

- اتأذن يا أمير المؤمنين ان ازوّجها منه ثم يطلقها قبل

الدخول ، وعندها يحلّ لك وطؤها في هذا الوقت من غير استبراء .

ابتسم هارون للعبة القاضي ، وقال لمملوكه :

ـ أذنت لك في العقد .

تمّ العقد . . واصبح هارون قاب قوسين أو أدنىٰ من الحسناء الفاتنة . . التفت القاضي الىٰ المملوك وقال :

ـ طلّق زوجتك !

ـ وإذا لم أطلّقها ؟

ـ طلقها ولك مئة دينار ذهب .

ـ لا افعل .

ـ طلقها ولك الف دينار !

ـ . . .

صرخ هارون بعصبية .

ـ يا ابن الفاعلة !

همس القاضي :

ـ لا تجزع يا أمير المؤمنين . . . ولو طلقها كارها لم يصح؛ دعني اجد لهذا المشكل حلّا .

مرّة أخرىٰ راح القاضي يقلب أوراقاً قديمة فهتف :

ـ وجدتها : ملّك هذا المملوك للجارية .

ـ ملكته لها .

التفت القاضي الىٰ الفاتنة :

ـ قولي قبلت .

ـ قبلت .

وهنا هتف القاضي ابو يوسف قاضي القضاة :

ـ حكمت بينهما بالتفريق لانه دخل في ملكها فانفسخ عقد النكاح .

هبّ أمير المؤمنين هارون الرشيد خليفة المسلمين في العالم علىٰ قدميه وهتف:

ـ مثلك من يكون قاضياً في زماني . . اليّ باطباق الذهب . .

امتلأ حضن ابي يوسف بمسكوكات الذهب . .

قال هارون وقد أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة :

ـ هل معك شيء تضع فيه ذهبك .

تذكر قاضي القاضي المخلاة :

ـ نعم . . مع غلامي مخلاة .

امتلأت المخلاة ذهباً يكاد سنا برقه يذهب بالالباب ، وغاب

هارون مع الحسناء الفاتنة وراء ستائر حمراء حالمة . ومضىٰ أبو يوسف جذلان فرحاً . . قال لغلامه وهو يحاروه :

ـ لا طريق الىٰ الدنيا اسهل واقرب من طريق العلم لقد أعطيت كل هذا المال من اجل مسألتين أو ثلاث ! !

16

ليس هناك في كل ذلك العالم المفتون من يدرك آلام موسىٰ..
رجل يحمل هموم الأنبياء وينوء بثقل آخر الرسالات في التاريخ .

لقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس . .
المفتونون ينظرون الىٰ هارون . . ينظرون الىٰ رجل ذهبي . .
يتحسرون في انفسهم سرّاً وعلانية يقولون : يا ليت لنا مثل ما
أوتي هارون انه لذو حظٍ عظيم . .

الدنيا تدور باهلها . . تتغير من حال الىٰ حال . . زهت القصور
فهي تنهض علىٰ انقاض اللحوم الآدمية . . خبت المساجد انطفأت
قناديلها . . وغطا المحاريب الغبار . . ضاعت تراتيل القرآن في زمن
الغناء . . اضحت بغداد قبلة الذين فتنوا بالعجل الذهبي .

ليس هناك من يدرك عذابات الأنبياء في زمن مشدوه

بالذهب.. يجعل منه الهاً من دون الله..

موسىٰ يكاد ان يتشظىٰ غضباً لولا أن كظم الحزن.. في عينيه تطوف غيوم ممطرة.. هنالك في اعماق ذلك الرجل الأسمر الذي ذرّف علىٰ الأربعين بركان يحتدم غضباً.

الأرض تشتعل بالثورة والنار ماتزال تحت الرماد والذين نجوا من «فخ».. يؤسسون دولاً ويشعلون الأرض ثورة.. ها هو يحيىٰ بن عبد الله ينهض بأمر الله وقد التف حوله «الديلم» في ارض الجبل[23]..

موسىٰ ينطوي على غضب سماوي.. يكضم حزنه.. وهارون خائف يخشىٰ موسىٰ.. يخشىٰ اسلحة الصمت الحزين.. يخشىٰ كلمات تنفذ في اعماق القلب في تلك النقطة التي يولد فيها الايمان، الأمل.. والثورة.. هارون لا يخشىٰ ادريس ولا يحيىٰ.. يعرف كيف يواجه تلك الأخطار.. لكنه يخشىموسىالاعزل من كل اسلحة الحديد.. ولكن هارون يدرك ان موسىٰ.. يحمل فيه يديه عصا ابن عمران وفأس ابراهيم..

جاء صفوان زائراً فقال موسىٰ وهو يحاوره:

ـ يا صفوان كل شيء منك حسن جميل.. ما خلا شيئاً وحداً.

أحسّ صفوان انه يهوي من فوق جبل:

ـ جعلت فداك أي شيء؟!!

قال الذي كظم غضب السماء :

ـ كراك جمالك لهذا الطاغية .

قال صفوان مبرّراً :

ـ ولكني لم افعل ذلك بطراً .. واعرف انه لا يريدها للصيد أو اللهو .. انما فعلت ذلك لأنه يريدها للحج .. كما اني لا أتولّىٰ خدمته بنفسي انما ابعث معه غلماني .

قال الإمام وهو يعلن حرب المقاطعة :

ـ أيقع كراك عليهم ؟

ـ اجل يا سيدي .

ـ اتحبّ بقاءهم حتىٰ يخرج كراك ؟

ـ نعم .

ـ من احب بقاءهم فهو منهم .. ومن كان منهم كان وارداً للنار .. «لا تركنوا الىٰ الذين ظلموا فتمسكم النار» .

هتف صفوان مذعوراً :

ـ أعوذ بالله !

لقد قرر موسىٰ الحرب .. وليس معه إلّا الكلمات .. الكلمات التي تتدفق ملتهبة كحمم بركانية ..

هنالك في الافق البعيد معركة فاصلة .. رجل أعزل من كل

شيء إلّا ميراث النبوّات يواجه نظاماً مدججاً بالسلاح . . مطموراً بالذهب . . ها هو هارون يجمع من حوله الشعراء ليسحروا اعين الناس . . يطلب منهم ان يقهروا موسىٰ .

في زمن الزمهرير في زمن ترتجف فيه المدن . . في زمن يتعذر فيه علىٰ الإنسان ان يحيا انساناً . . في زمن يُمسخ فيه الكائن البشري ليستحيل الىٰ مخلوق آخر لا يملك من بشريته سوىٰ أهاب كاذب في مثل هذا الزمن يختنق الأحرار . . يختارون الموت أو السجن . . من اجل ان تبقىٰ للإنسان كرامته.

هارون ماهر في لعبة الشطرنج . . يعرف كيف يقهر موسىٰ.. يعرف كيف يثير الحيوانات الكامنة في النفوس البشرية . . ها هي تتفلت من عقالها كثيران هائجة . . تدمّر حاجز العقل والدين والكرامة .

فقدت الاشياء توازنها . . استقرارها ولم يعد هناك من شيء مقدّس فقد خسر الإنسان نفسه وهو يركع في حضرة العجل الذهبي. . واصبح القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر .

كثيرون هم الذين بهرهم العجل الذهبي فهم عاكفون عليه حتىٰ لو جاء موسىٰ..

بريق الذهب يخطف الأبصار ويذهب بالألباب . . وجاء رجل.. رجل انسلخ عن الايمان بهره ذهب هارون . . يريد السفر؛

قال له موسىٰ غضبان أسفا :

ـ بلغني انك تريد السفر ؟

ـ نعم .

ـ الىٰ اين ؟

ـ الىٰ بغداد .

ـ ما تصنع في بغداد ؟ !

ـ علىٰ دين وأنا مملق .

ـ انا اقضي دينك .

ولكـن المـبهور بـعبادة العـجل لم يـلتفت الىٰ دعـوة العـبد الصالح . قال له موسىٰ وهو يهبه ثلاثمئة دينار :

ـ لا تؤتم أولادي !

برقت عينا الاسخريوطي بالغدر .

فانطلق الىٰ بغداد . . الىٰ كنوز قارون . . ودنيا هـارون وثب الشيطان في اعماقه . . فجاء يدلّ علىٰ ابن مريم . . جاء ليبني مجده علىٰ اشلاء من ولدته الأنبياء . . جاء ليبطش بموسىٰ . . لقـد اعـماه بريق الذهب . . خلب لبّه فسوّلت له نفسه قتل اخيه !

17

بدا هارون في قصره ذلك الصباح البارد ثعباناً جامداً ، عيناه تحدّقان في نقطة ما في ارضية البلاط . . كان يسفح افكاره وهواجسه في تلك النقطة المبهمة... يفكر ويدبّر . . لقد انفجر الغضب العلوي في جبال الديلم . . ولم يعد هناك من وقت للسكوت .

وهناك في المدينة رجل اسمر يقال له موسىٰ يحمل في قلبه قرآن محمد وفأس ابراهيم وعصا موسىٰ .

وهناك في طنجة حيث تغرب الشمس علوي آخر هو أدريس وقد نهضت له دولة واصبحت له صولة .

تناهت الىٰ أذن هارون جلبة وضوضاء لقد حضر وزير الدولة يحيىٰ بن خالد البرمكي . . مايزال يأمر وينهىٰ وينصب

ويعزل ويفعل ما يشاء..

هيمن صمت ثقيل كغراب جاثم.. وقد بدا رجال الدولة بثيابهم الرسمية السود سرباً من الغربان يبحث في الأرض ..

كان هارون متوتر الأعصاب لقد أدمن الخمر وها هو يتركها فجأة ففي الافق الشرقي ما يبشر بالخطر يحيىٰ العلوي يرفع راية الثورة في ارض الجبل..

بدأ الوزير حديثه لكسر حاجز السكوت :

ـ غدا أو بعد غد سينطلق وفدنا الىٰ شارلمان ملك الفرنجه يحمل له هدايا الخلافة وفيها الساعة الروحانية انه يريد منا أن نحمي الحجاج النصارى الذين يقصدون بيت المقدس.. ونحن نريد منه أن يكفينا شرّ هشام في الاندلس وربّما صولة ادريس..

تساءل هارون :

ـ والطيب الذي ارسلته اليه ؟!

ـ لم أحصل بعد علىٰ اخبار .

التفت هارون الىٰ الفضل :

ـ اين كنت كل هذه المدّة عن يحيىٰ .. لقد التفّ حوله الديلم[24] وقويت شوكته ؟

ـ لا تخشَ شيئاً انا اعرف اكيف اخمد انفاسه .

ـ أنا لا اخشىٰ إلّا شخصاً واحداً.

قال الوزير:

ـ ومن هو ؟

ـ موسىٰ بن جعفر..

سكت هنيهة واردف:

ـ اشعر أنه يحاربني هنا في بغداد.. بل في قصري لشدّ ما امقت هؤلاء العلويين.. لا اطيق أن اراهم يعيشون، ويتزوجون، ويتكاثرون.

ومضت عيناه ببريق مخيف وهو يقول:

ـ ان موسىٰ هو مصدر الخطر..

والتفت الىٰ الفضل:

ـ اخمد انفاسه قبل أن يستفحل أمره.. انا لا اطيق دولة ادريس، فاذا نهضت ليحيىٰ دولة فلا آمن أن يقوم موسىٰ ويضربني بمئة ألف سيف[25].

ارسل هارون نظرة من خلال نافذة القصر وتمتم:

ـ أريد الحج هذه السنة.

مرّت أيام شهدت فيها بغداد ثلاثة احداث.. غادر موكب الخليفة العاصمة الىٰ الكوفة علىٰ طريق الحج، وتحرّك جيش قوامه

خمسون الف مقاتل بقيادة الفضل لقمع الثورة المشتعلة في ارض الجبل.. ووفد يضم مسؤولين في الدولة يتوجه الىٰ ارض الفرنجة حيث يحكم الملك شارلمان بدا موكب الخليفة وهو يضم كبار رجال الدولة وجمع من رجالات المجتمع ؛أن هارون يريد أن يعلن للجميع قائلاً :

ـ ايها الناس أليس لي ملك نصف الأرض وهذه الانهار تجري من تحتي ؟!

لا أحد يعرف ما يدور في خلد هارون وهو يصطحب معه ولديه عبد الله ومحمد ، اصبح موكب الخليفة قاب قوسين أو أدنىٰ من الكوفة ، ورأىٰ من بعيد قوافل تتجه صوب بقعة علىٰ شطآن الفرات حيث ترتفع باسقات النخيل.. صرّ علىٰ نواجذه بحقد.. أمر عجيب.. انه يمقت تلك البقعة يودّ أن يعفي قبورها وآثارها من الارض ومن ذاكرة التاريخ.. لقد علّم الحسين الناس أن يعيشوا احراراً أو يموتوا واقفين مثلما باسقات النخيل..

كان هارون يتأمل من بعيد سدرة ترسم ظلالها فوق قبر الحسين.

خطرت في ذهنه فكرة ، ومضت كبرق في قلب الظلمات ماذا لو أنه عاش في عصر الحسين.. انه لن يتردد حتىٰ لحظة واحدة في تمزيقه.. ان الملك عقيم بل لو أن رسول الله نازعه في ذلك لقطع

رأسه ان يزيد لم يفعل شيئاً يستحق من أجله اللعن !

حطّ الخليفة رحاله في الكوفة .. في مدينة كانت يوماً ما عاصمة الإسلام .. ومخزناً للثورة .. ماتزال حلماً للثائرين .. فكلما ضاقت السبل علىٰ الأحرار امّوها ليجدوا فيها اسلحة وسواعد مقاتلة وقلوباً تنبض بالحرّية .

ولكن الكوفة لم تكن كحالها بالأمس تغيرت كثيراً سرىٰ لها الوباء من بغداد .. شاع فيها الخمر والغناء .. ومجون الشعراء .. حتىٰ ان «بهلول»[26] لم يعد يرىٰ فيها شيئاً يأنس به سوىٰ مقابرها .. يرتادها احياناً كثيرة يصغي الىٰ صمت القبور .. وربّما حدّثها عن موت الكوفة .. عن انسلاخها من الآيات .



18

غضّ المكان بالوافدين.. العيون جميعاً تبحلق بهارون وقد تربع بين أولاده ورجال دولته.. تحسّر بعض أهل الكوفة وربّما همسوا فيما بينهم قائلين: يا ليت لنا مثل ما أوتي هارون انه لذو حظّ عظيم.

هارون يتصفح الوجوه كان يحرص علىٰ أن يرىٰ مدىٰ سطوته.

العيون تنظر اليه في خنوع، يصل الىٰ درجة الذلّ، ولكن هناك من لا يكترث له ولكنه لم يحضر مجلس الخليفة.. كان يدرك تماماً ان سطوته تكمن في سيفه وقوّته تظهر في استهانته بالإنسان.. انه يخيف الناس بالموت.. ولكن هناك من لا يخشىٰ الموت.. لهذا أمر باحضار «بهلول بن عمرو» وقف البهلول بثيابه

المنسوجة من الصوف وقد ظهرت عليها الرثاثة . . وقف قبال الخليفة . . شعر هارون بعمق التناقض وهو يحدّق في وجه رجل يراه لأول مرّة . . كان بهلول هو الآخر يراه للمرّة الأولى .

قال هارون مستكشفاً :

ـ سمعت انك تقضي وقتك في المقابر !!

ـ وانت أين تقضي وقتك ؟ .

ـ اغزو عاماً واحجّ عاماً واصلّي في اليوم مئة ركعة[27] . . وها أنا كما ترىٰ عزمت الحج هذه السنة .

سكت أبو وهيب قليلاً ثم قال :

ـ يا هارون من رزقه الله مالاً وجمالاً فواسىٰ في ماله وعفّ في جماله كتب في ديوان الله من الأبرار .

ابتسم الخليفة وظن أن بهلول يريد أن يصيب شيئاً من كنوز هارون :

ـ انّا أمرنا بقضاء ديونك .

اجاب بهلول دون اكتراث :

ـ لا تفعل ذلك لا يقضىٰ دين بدين . . أردد الحق الىٰ أهله .

ـ اذن نجري عليك رزقاً .

ـ اتظن ان الله يعطيك وينساني ؟ !

امسك هارون بصرة فيها ألف دينار . . أراد أن يقطع لسان بهلول :

ـ هذه ألف دينار خذها . . تستعين بها علىٰ دنياك .

سقطت الصرّة عند قدمي بهلول . . دفعها برجله وقال بلهجة فيها تحد :

ـ اارددها عليٰ اصحابها فهو خير لك .

سكت هارون اعتصم بالصمت وقد ساد الوجوم الوجوه . .
ظن بعض من يتمنىٰ دنيا هارون ان بهلول قد مسه طائف من الجنّ.

قال هارون وهو يحاول أن ينفذ الىٰ قلب بهلول :

ـ انّا نريدك للقضاء يا بهلول .

قال بهلول مذعوراً :

ـ ما أنا والقضاء ؟ !

ـ كيف وقد اطبق أهل بغداد علىٰ أنك أعلم الناس به ؟ !

ـ أنا اعرف بنفسي من أهل بغداد . .

سكت قليلاً وأردف :

ـ وأنا في ادّعائي بجهلي علىٰ حالين صادقاً أو كاذباً فأن

كنت صادقاً فيما أقول وهو الحق وإلّا فلا يصلح للقضاء كذّاب.

ابتسم الخليفة لمنطقه الفياض قائلاً:

ـ انت تتهرّب ليس إلّا.. ولكن لا مفرّ لك من ذلك عندما أعود من الحج سأجدك تقضي بين الناس.

علت وجه الذي ركل الدنيا مسحة حزن فقال بأسىٰ:

ـ دعني أفكر.

هتف هارون بلهجة الظافر:

ـ كما تحبّ.. فلديك من الوقت ما يكفي.. أدار بهلول وجهه وهو يقلّب أمره علىٰ خطرين.

لم يغتم بهلول في حياته مثل هذا اليوم لكأن مصائب الدنيا كلّها قد تجمعت لتنزل علىٰ رأسه كالصاعقة.. لقد ولّىٰ زمن السلام وجد بهلول نفسه يمضي باتجاه المقبرة..

شيئاً فشيئاً تلاشىٰ الضجيج في أذنيه وحلّ مكانه صمت مطلق.. لم يعد يسمع شيئاً حتىٰ خطاه.. فتدفق نبع من السلام في نفسه كما لو أن قلبه يغتسل في نهر بارد..

عيناه تحدّقان في قبر بدا حديث عهد.. عجباً لهذا الكائن.. يقضي عمره في اللهاث وراء الدنيا يملأها ضجيجاً.. وربّما يسفك الدم.. يبني الدور ويعمّر القصور، ثم تكون نهايته بقعة صغيرة

تحت الأرض . . لقد خفتت ضحكاته . . تبعثرت احلامه وأمـانيه . . واخيراً اخلد الىٰ الصمت . . اضحىٰ بعد كل تلك الضجة ســاكـتا . . يصغي الىٰ الريح تسفي التراب ويشرب المطر . .

هتف بهلول :

ـ لا . . لن ارمي نفسي في وسط الجحيم . . لتذهب الىٰ جهنم دنيا هارون . . ولتنخسف الأرض بقارون وكنوزه !

خيل اليه أنه يسمع صوتاً . . فيه صفير شيطاني :

ـ أنت مجنون بهلول . . كيف تركل كل هذه الدنيا العريضة . . الجاه . . الثراء .

هتف بهلول بهستيرية :

ـ اجل . . انا مجنون ! مجنون . . مجنون . .

قفز من مكانه . . كمن تحرقه النار . . وراح يـركض بكـل مـا أوتي من قوّة . . قلبه يدق بعنف كطبول حرب مجنونة . . لعلّه كان يودّ ان يطير الىٰ السماء الزرقاء الىٰ عالم مفعم بالصفاء . .

وجد بهلول نفسه يسير بمحاذاة جدول صغير نـبتت عـلىٰ ضـفافه شـجيرات قـصب واعشـاب مـدّيده الىٰ قـصبة تـصل الىٰ هـامته . .

انتزعها من وسط الطين . . جرّدها من أوراقها الطويلة غدت

كرمح .. هزّها بشدّة وقد شعّ من عينيه نور عجيب ..

مرّ رجل كوفي كان يمضي الىٰ زرعه .. هتف من بعيد :

- ماذا تفعل هنا يا بهلول ؟!.

- لقد اعلنت الحرب علىٰ هارون !

قهقه الرجل :

- كيف ؟ أين سلاحك .. وحصانك ؟!

هزّ بهلول قصبته :

- هذا رمحي !

ثم وضع القصبة بين رجليه .

- وهذا حصاني .

وانطلق بهلول باتجاه الكوفة .. فيما غرق الرجل في نوبة ضحك وهزّ رأسه اسفاً :

- لا شك ان الجلوس في المقابر قد أورثه الجنون .

19

موكب الخليفة هارون الرشيد يشق طريقه في وسط الكوفة، وبمحاذاة السوق كانت الضجة ترتفع شيئاً فشيئاً، وطغت ضجة الحرس والجند على اصوات الباعة .. اجتذب شخص هارون عيون الناس.

الجميع يرنون الى رجل يحكم مساحات شاسعة تمتد من خراسان الى افريقيا ومن ارمينيا الى شواطئ المحيط الهندي .. رجل يخاطب الغيوم المسافرة قائلاً: اين ما تمطرين فخراجك اليّ.. رجل يملك من الكنوز اضعاف ما يملكه قارون.

شيء واحد لفت انظار الكوفيين لقد جنّ الرجل الزاهد بهلول، ها هو يمتطي قصبة ويهرول صائحاً: تنحّوا عن طريقي لا يرفسكم حصاني!!

همس احدهم :

ـ مسكين هذا الرجل الصالح .. لقد فقد عقله ..

قليلون جدّاً الذين ادركوا سرّ جنونه ..

تمتم هارون وقد وقعت عيناه علىٰ بهلول :

ـ والله ما جنّ بهلول ولكن فرّ بدينه ..

هزّ هارون رأسه وقد انبعث في نفسه اجلال علىٰ الرغم منه..

ساد الوجوم وجهه .. واكتست ملامحه مرارة عميقة .. تساءل في نفسه عن سرّ الإنسان الزاهد .. كيف يرفض الإنسان ملذّات الحياة .. وكل هذه المفاتن ؟! ترىٰ علىٰ ماذا تنطوي اعماق بهلول .. وهل للعبادة عوالم فاتنة تجعله يرفض متع الحياة .. هل لها فعل الخمرة المعتّقة ، يسبح من يعبّها في عوالم خيالية غائباً عن الوعي ؟!

هناك في جانب من الكوفة رجل يشق طريقه الىٰ هارون.. الىٰ دنيا قارون .. كان هناك طريقان للشعراء لكي ينفذوا الىٰ قصور هارون وكنوزه و«أبو نؤاس»[28] يعرف ذلك جيداً .. يعرف أن قلب هارون لا ينفتح الىٰ الشعر إلّا إذا كان شتماً وهجاءً لآل أبي طالب .. ان عرش بني العباس لا ينهض إلّا علىٰ اشلاء ابناء علي أولاد العمّ يضمرون حقداً هائلاً لعلي ، وذرّيته .

أبـو نـؤاس يـعرف ذلك فـاختار الطـريق الثـاني طـريق الـخمريات. . أبو نؤاس يقترب مـن المـوكب ويـجد له مـنفذاً للـقاء الـخليفة فيهتف بصوت سكران :

-قامت تريني وأمر الليل مجتمع صبحاً تولّد بـين المـاء والعـنب
كأن صغرىٰ وكبرىٰ من فقاقعها حصباء درّ علىٰ أرض من الذهب

هتف رجل بانزعاج .

- وهل هذا وقتها يا أبا نؤاس ألا تـرىٰ أمـير المـؤمنين فـي طريق الحج ؟!

اندفع أبو نؤاس مترنّماً وقد ادرك ارتياح هارون :

دع عنك لومي فـانّ اللـوم اغـراءُ وداونـي بـالتي كـانت هـي الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لو مسّـها حـجر مسّـته سـرّاء
رقت عن الماء حتىٰ مـا يـلائمها لطـافةً وجـفا عـن شكـلها المـاء

انتشىٰ هـارون ، شـعر انـه يكـرع كأسـاً مـن يـد «هـيلانة» أو «سـحر» .

لم يكن الوضع ليشجع هارون علىٰ الانسياق وراء مشاعره؛ فـبذل جـهداً جـبّاراً لكـي يكـبت مـا يـموج فـي اعـماقه ، وتـظاهر باللامبالاة ولكنّه ملأ عينيه من شاعر غارق فـي الـخمرة ؛ انـه لن يـجد له نـظيراً بـين كـل الشـعراء . . لقـد سـمع عـنه الكـثير حـدّثه الاصمعي عن قصّته مـع «جـنان» حسـناء البـصرة قـال هـارون

مجاملاً :

ـ الا تنشد اشعارك التي قلتها في طريقك الىٰ مكة .

ابتسم أبو نؤاس وانطلق يترنم وقد تمثلت له صورة جنان بابتسامتها العذبة :

ـإلهنا ما اعدلك	مليك كل من ملك
لبيّك قد لبّيت لك	لبيك انّ الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لما أن حلك
والسابحات في الفلك	علىٰ مجاري المنسلك
ما خاب عبد امّلك	انت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك	كل نبي وملك
وكل من أهلّ لك	سبّح أو لبّىٰ فلك
يا مخطئاً ما اغفلك	عجّل وبادر اجلك
واختم بخير عملك	لبيّك ان الملك لك
والحمد والنعمة لك	والعزّ لا شريك لك .

تأثر بعض من كان يصغي فهملت عيونهم دمعاً وشوقاً للبارئ الحبيب .. ودهش بعضهم كيف يمكن لهذا الماجن ؛ أن ينظم هذه الكلمات الفيّاضة بالرقة والجمال ؟ !

غادر موكب الخليفة الكوفة .. غيوم آذار تعبر السماء تبشر الأرض بموسم جديد .. تحمل لهم بشائر الربيع .. نظر هارون

السماء الزاخرة بالغيوم وتمتم :

ـ اين ما تذهبين فخراجك اليّ . .

سوف تستحيل الغيوم الىٰ مطر . . يسقي الأرض . فتنبت من كل زوج بهيج . . وتبدأ مواسم الحصاد ، ويأتي الجباة يمتصون رحيق الأرض ، وعرق الجباه .

يعتصرون منها ذهباً وفضة تتدفق الىٰ هارون وكنوزه . . فتنتعش ليالي اللذّة وتتضاعف اعداد الجواري الحسان وتنتفخ جيوب المغنّين . . وتصاب معاصر الكروم بالحمّىٰ . . ويتأوّه الفقراء حزناً يتضورون جوعاً ويذوبون ألماً الّا يجدوا ما ينفقون .



20

أحقاً ما يقال أن المرء إذا ذاق قطعة من لحم الإنسان تحوّل الىٰ ذئب ؟ !

ومن يقتل الناس ظلماً ومن يلغ في دماء أهله ويشرّدهم ويقتلهم .. فأنه يتحول ولا شك الىٰ طاغية .. وينقلب الىٰ ذئب؟ .

هارون يغرق في كؤوس الخمر .. ينحدر في هاوية لذائذ لا حدّ لها .. ومالها قرار .. مات الإنسان في اعماقه .. لم يعد يفكّر إلّا في عرشه ، حتىٰ لو مشى علىٰ آلاف الجماجم .. حتىٰ لو داس علىٰ اشلاء أهله .. وقضم عظام بني عمّه .

لم يكن حجّه ذلك العام إلّا مكاءً وتصدية .. ليست الكعبة عنده إلّا صدفة تحفظ له لآلئه لهذا يريد أن يودع في جوفها كنوزه وورثته .. ها هو يسمّي وليّ عهده الأول والثاني ثم يلج الكعبة

ليعلق علىٰ جدرانها كتابه الذي يريد له أن يبقىٰ مقدّساً في ضمائر امّة مظلومة..

لقد بدأ هارون رحلته في التقرّب من الناس؛ لا يلقىٰ كل من يصادفه إلّا بالتحية والسلام.. يجزل الوعود ويعفي عن الديون ويوزع الأرض على مؤيديه.. يتصنع الطيبة مع الجميع.. ولكن في الوقت نفسه يبدأ بتكوين حرس قوي يلتف حوله لحمايته.. ثم يبدأ في تأمين وجوده في الداخل والخارج.. يفاوض اعداءه في الخارج ويقاتل بعضهم، ثم يتجه الىٰ الداخل فيتخلص من كل مناوئيه..

وعندما يأمن هذا الجانب فأنه لا يكف عن اشعال الحروب الواحدة تلو الأخرىٰ حتىٰ يشعر الجميع بحاجته الىٰ قائد وحتىٰ لايجد الناس الذين أفقرتهم الضرائب سوىٰ الاستغراق في الكدح لتأمين رزقهم اليومي بدلاً من التفكير بالثورة عليه.. ومن اجل هذا كان هارون يغزو عاماً ويحج عاماً!!.

انطوىٰ موسم الحج الأكبر وخلع هارون لباس الإحرام الأبيض؛ ليرتدي حلّته السوداء..

وعندما ولّىٰ وجهه شطر مدينة النبي كان همّه الوحيد ان يقهر موسىٰ.. ان يتخلص من رجل تبدو الى جانبه كل عيوب هارون.

انه لم يعد قادراً على تحمل موسىٰ.. موسىٰ يحاربه في كل

مكان حتى في بغداد .. انه يكمن وراء كل ثورة ووراء كل كلمة متمرّده ووراء كل موقف حرّ .. ووراء كل الذين يرفضون ان يتسنموا منصباً في الدولة .. وهو الذي باع «جمال صفوان» وهو وراء جنون بهلول ووراء رفض زياد منصبه ووراء ثورة يحيىٰ في ذرىٰ الجبال .. ووراء دولة ادريس في اقصىٰ الشمال الأفريقي..

وهارون يدرك كل ذلك ولكنه لن يسكت اكثر من هذا .. سوف يضرب بيد من حديد أو أشدّ قسوة .. ومضت في ذهنه كلمات قالها علي بن اسماعيل[29] .. كلمات تشبه فحيح الأفاعي : ما ظننت ان في الأرض خليفتين حتىٰ رأيت عمّي موسىٰ .. تجبىٰ اليه الأموال من المشارق والمغارب .. هارون يتميز غيظاً .. يشتعل حقداً يتصور أن موسىٰ يعترض طريقه .. ينافسه السلطان .. هارون يريد أن يستغرق في لذائذه ما ظهر منها وما بطن ..

وعندما يندثر الجزء العاقل الشفاف من النفس .. ينطلق الجزء الحيواني المتوحش من عقاله مثقلاً بالطعام والشراب والرغبات الجامحة الأخرىٰ .. ينطلق باحثاً عن مجال لجموحه وعربدته .. وعندها تتساقط أوراق الحياء وستائر الخجل ولا يبقىٰ مجال للتردد في ارتكاب اية جريمة .

بهذه الهواجس ولج هارون مسجد الرسول ليقف قبالة مرقد النبي ويخاطبه دون حياء :

ـ يا رسول الله ! اني اعتذر اليك من أمر عزمت عليه . .

هيمن سكوت بارد أردف هارون :

ـ أريد أن آخذ موسىٰ فاحبسه :

مايزال الصمت يهيمن . . ما خلا خطوات ثقيلة تشق طريقها الىٰ خارج المسجد حيث اصطف عشرات الحرس تحت سماء تكتظ بالنجوم .

المدينة تنوء بالظلمات يتراكم بعضها فوق بعض ، والنجوم في اغوارها السحيقة قلوب واهنة تنبض قلقاً . . وقد اخلد الهواء الىٰ الأرض . . وبدا الجوّ خانقاً .

وباتت المدينة ليلتها خائفة تترقب طافت كلمات هارون ، بيوت المدينة كبوم مجنونة تبشر بزمن الخرائب والاطلال . . بزمن الكوارث . .

وهناك في جانب من المدينة منزل نعبت فيه البوم .

موسىٰ قائم يصلي في المحراب ، وقد لجأ اليه صبية وبنات ، ورغم نسمات الربيع المفعمة بشذىٰ الرياحين فقد خامر الجالسين شعور بالبرد . . القلوب الخائفة تحسّ لفحات الزمهرير . . وجاء رجل من اقصىٰ المدينة يسعىٰ قال : يا موسىٰ أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج اني لك من الناصحين .

غصّت الحجرة بالقلوب والعيون تحدّق برجل فى وجهه الأسمر تموج اطياف نبوّات غابرة .. رجل يشبه خيمة تعصف بها الريح من كل مكان ..

التفت موسىٰ الىٰ وجوه يعصف بها القلق .. عيناه تشعّان رحمة تطوف بين الوجوه .. ابراهيم .. علي .. فاطمة .. أحمد .. حمزة .. زيد .. آمنة .. القاسم .. اسماعيل .. اسحاق ..

تجمعت الدموع في عينية كغيوم ممطرة .. نظر الىٰ السماء من كوّة صغيرة .. السماء مرصّعة بالنجوم عالم لا نهائي تضيع فيه الأرض ..

من يتعلق بالسماء تصغر في عينيه الأرض قال موسىٰ ليعيد السلام الىٰ القلوب المذعورة .. لتطمئن الحمائم:

ـ المؤمن اعزّ من الجبل .. الجبل يستفل بالمعاول .. والمؤمن لا يستفل دينه بشيء ..

همس عبد الله بكلمات مذعورة :

ـ لقد اصبح ملك هارون عظيماً .. تحفّه سيوف ورماح .. يقتل من يشاء ويستحيي من يشاء !

قال موسىٰ :

ـ والله لئن عزّ بالظلم في الدنيا ليذلّن بالعدل في الآخرة .

ـ الىٰ متىٰ نحيا خائفين . . الىٰ متىٰ نعيش جائعين ؟ !

قال موسىٰ وهو يحدّق في المديات البعيدة :

ـ ان الأنبياء وأولاد الأنبياء واتباع الأنبياء خصّوا بثلاث خصال .

السقم في الابدان ، وخوف السلطان . . والفقر .

ـ ليت شعري ما الذي يردع المرء عن ارتكاب الآثام ؟ !

ـ الحياء . . واذا لم تستح فافعل ما شئت .

ـ لقد أوتي هارون ملكاً كبيراً . . حتىٰ بات يخاطب السحب قائلاً :

اين ما تمطرين فخراجك اليّ ! !

ـ ماذا يفيد الإنسان لو أنه ربح العالم كلّه وخسر نفسه ؟ ! !

21

المدينة خوف وقلق ، رعب وأرق . . طلع الفـجر كـغبار مـن الرماد . .

موسىٰ بن جعفر في طريقه الىٰ مسجد جدّه . . الأذان ينساب شجيّاً حزيناً لكأنه ينبئ عن حزن سماوي . .

غيوم آذار تمطر علىٰ هون كدموع يتيم في ليلة شتائية ..

ولج موسىٰ مسجد جدّه . . وقد احدقت به عشرات الافاعي.. تقدّم حفيد محمد الىٰ جـدّه قـبّل الضـريح المـضمخ بشـذىٰ آخـر النبوّات في التاريخ شعر ان يقبّل وجه النبي .

وقف يصلّي . . وجـهه الأسـمر يـتألق بـنور سـماوي وقـد غمرته اللانهائية . . ليس هناك في كل هذا العالم من يمكنه أن يقهر موسىٰ وهو يستمد عزّته من عوالم سماوية بعيدة . .

الأيدي الغليظة تمسك برجل يحمل ميراث محمد.. لم ترع حرمة المسجد، ولم يردعها الحياء من آخر الأنبياء في التاريخ..

التفت الحفيد الىٰ جدّه وهتف بأسىٰ:

ـ اليك اشكو يا رسول الله.

امتلأت عيناه بالدموع دموع وداع.. دموع غربة طويلة..

القيود القاسية تطوق يديه، تثقل قدميه.. وقد بدا هارون عصبياً عيناه تتوقدان بوهج مخيف..

انه لا يخشىٰ احداً خشيته موسىٰ الذي جاء يطالب بفدك.. بحدودها المترامية الممتدة من عدن الىٰ سمرقند، الىٰ افريقيا الىٰ سيف البحر، مما يلي الجزر وأرمينيا المدينة يلفها خوف وبرد.. لقد انطفأ السلام، وغابت الطمأنينة.

هارون غارق في حلّته السوداء فبدا فرعوناً..

وجاء موسىٰ يرسف بقيوده والاغلال.

قال هارون بنبرات تقطر حقداً:

ـ يا موسىٰ: خليفتين يجبىٰ لهما الخراج..

ـ يا أمير المؤمنين؛ أعيذك بالله ان تبوء باثمي واثمك، وتقبل الباطل من اعدائنا علينا..

اشتعلت رغبة في اعماق هارون في أن يسبر غور خصمه

فقال بعد سكوت ثقيل :

ـ في صدري اشياء تتلجلج . . لم أسأل عنها احداً . . ولقد بلغني انك لم تكذب قط . . فدع التقية واصدقني . .

ـ أآمن أنا؟

ـ نعم .

ـ سل عما تشاء .

ـ لم فُضلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة . . فالعباس وأبو طالب عمّا رسول الله . . وقرابتهما سواء ؟ !

ـ ولكن عبد الله وأبا طالب لأب وأم . . والعباس من أم أخرىٰ.

ـ كيف تدّعون وراثتكم للنبي والعم يحجب ابن العم ؟ !

ـ هذا فقه أموي ما انزل الله به من سلطان . . وقد جاء في قول علي انه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أم انثىٰ لاحد سهم إلّا الأبوين والزوج والزوجة . . وقد روىٰ قدماء العامّة عن النبي انه قال : علي اقضاكم وكذلك قول عمر : علي أقضانا .

قال هارون باستعلاء :

ـ العم يحجب ابن العم . . وان الخلافة ميراثنا من رسول الله . .

سكت موسىٰ قبل ان يلقي بعصاه لتلقف ما يأفك هارون :

ـ ان النبي لم يورث من لم يـهاجر ولا اثـبت له ولايـة حـتىٰ يهاجر.

ـ انه مـجرّد ادعاء.

قال الذي عنده علم الكتاب بصوت شجي:

ـ «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شـيء حتىٰ يهاجروا».

انتفض هارون لكأنه يرىٰ ثعباناً مخيفاً:

ـ هل أفتيت يا موسىٰ أحداً بذلك؟!

اجاب موسىٰ بكلمات مفعمة بالسلام:

ـ لا.. وما سألني عنها أحد سواك.

عربد الشيطان في اعـماق مـن آتـاه الله الكـنوز؛ هـتف فـي اعماقه ان موسىٰ يجب أن يـموت.. ليأخـذ مـعه أسـراره وعـلمه وكلماته الىٰ قبره..

صفق بكفّيه فجاء حرّاس غلاظ الأكباد ليجرّوا مـوسىٰ الىٰ حبسه.

في صباح كئيب غابت شمسه خلف الغيوم، وكانت السماء تمطر علىٰ هون.. تجمع عشرات الناس أمام قصر حاكم المـدينة

حيث اعتقل الرجل الأسمر الذي يحمل القاباً عديدة .. فهو الكاظم.. وباب الحوائج والعبد الصالح والسيد والوفي والأمين .. والزاهر .. وها هي الجماهير تهبه لقباً آخر .. هو الصابر .. لقد بدأت رحلة العذاب .

حالة من الترقب تسود المدينة .. والرحيل وشيك .

القلوب انما هي براكين غاضبة تنطوي علىٰ مخزون هائل من الحمم .. التي تنطلق في الفضاء عندما تمسّها شرارات الظلم .. حتىٰ الظلم لا يكفي في إشعال الثورات .. بل الشعور بالظلم وحده الذي يحيل قلب الإنسان الىٰ بركان متفجّر .

من أجل هذا وقف سكّان المدينة ذلك الصباح الرمادي؛ ينظرون الىٰ قافلتين تحفّهما سيوف وحراب .. قافلة تأخذ طريق البصرة وأخرىٰ الىٰ الكوفة .. وحرّاس غلاظ يحدقون في قبتين متشابهتين تماماً في إحداهما رجل يحمل ميراث السماء ..

انها إرادة هارون .. من اجل ان يعمي الأخبار علىٰ الناس فلا يعرفوا في أي القافلتين غيّب موسىٰ .

وقفت «فاطمة»[30] تودّع أباها من بعيد .. وقد خفق قلبها الصغير الىٰ قبّة تتجه الىٰ البصرة .. ان قلبها لا يخطئ ..

غابت القافلة وراء الافق البعيد .. وكانت السماء تنث مطراً

خفيفاً لكأنها تبكي .. عادت فاطمة مع اخيها .. عادت تجرجر نفسها وخطاها الىٰ منزل بدا في ذلك الصباح الغائم خاوياً علىٰ عروشه .. لقد رحل الأب وربّما دون عودة .. نظرت الىٰ السماء المثقلة بالغيوم .. والمطر .. انبجست دموع طفولية تشبه مطراً حزيناً راحت تتساقط بصمت .

22

القافلة تهوي في بطون الأودية ، وقد تراكمت الظلمات بعضها فوق بعض ، السماء تكتظ بالنجوم . . ترسل ضياءها الأزرق من أغوارها السحيقة .

حطّت القافلة رحلها بواد غير ذي زرع . . وترجل موسىٰ بعد أن بركت سفينة الصحراء . .

كان حسان السروي يراقب عن كثب رجلاً مدنياً يخشاه هارون . .

ماتزال كلمات الخليفة المذعور في أن لا يغفل عن موسىٰ لحظة واحدة تطنّ في أذنيه . .

تساءل في اعماقه عن السرّ الذي جعل نظاماً مدججاً بالسلاح يخشىٰ رجلاً اسمر . . رجلاً أعزل . . رجلاً بدا مستغرقاً في

عالم آخر.. عالم لا يمتّ الىٰ الدنيا بصلة.

لم يسبغ موسىٰ وضوءً حين أراد الصلاة وأدرك حسان ان السجين المكبّل بالقيود لم يذق النوم حتىٰ مضمضة.

سرّ ما يكمن في أعماق هذا العلوي الحسيني.. شيء ما يكمن في اعماقه لا يدري ما كنهه ولكنه شيء راسخ وثابت.. شيء يجعل الذين يحيطون به ينحنون له اجلالاً..

انه ليس انساناً عادياً.. شيء يعبّر عن تحطيم الإنسان لذاته.. أو ان ذاته قد استقرّت في بوتقة من كمال مطلق لا حدود له.. انّه ولا شك ينطوي علىٰ غضب هائل.. غضب يصل حدود التناقض بين شخصيتين شخصية غارقة في لذات الدنيا يجسّدها هارون، بشبابه وكنوزه وملكه العريض، وبين انسان مستغرق في عوالم من نور..

ولكن اعظم ما في موسىٰ أنه يبدو في هدوء كامل وسكينة لا نهاية لها انه يكظم غضبه في أعماق متأججه.. ولعلّ ما يدلّ علىٰ غضبه تلك المسحة الخفيفة من الحزن تطوف فوق جبينه الأسمر أو تتألق في عينيه الصافيتين..

كان حسّان مسترسلاً في تيّار من هواجسه وقد وقف موسىٰ متجهاً الىٰ بقعة بواد غير ذي زرع.. وقف متجهاً بكلّيته.. فبدا تمثالاً لا يتحرك منه شيء، سوىٰ أطراف ثوبه تداعبها نسائم

ليلية عليلة..

شعر حسان السروي ان نبعاً من المحبّة يتفجر في قلبه على الرغم منه.. وان نهراً من السكينة يترقرق في صدره..

شيء ما بدأ يتحرك في قلب حسّان جعله يقترب من موسىٰ، يحمل اليه بنفسه طبقاً صغيراً يحوي كسرة خبز وشواء..

- ياللروعة !!

هتف حسان في أعماقه.. شعر ان العالم كلّه يتجمع في نقطة واحدة.. نقطة مغمورة بالنور... بالسكينة المطلقة والصفاء اللانهائي..

لقد جلس في حضرة الصوفيين.. لكنه لم يشعر بالطمأنينة مثل هذه المرّة.. فالصوفي يعيش في خَدَر لذيذ.. لا يدري ما يجري حوله.. يصنع عالمه الوهمي المترع بالخيالات؛ اذكاراً تمسّ الأعصاب بالخدر.. كما تمسّ الخمرة الرؤوس السكرىٰ بالنشوة..

اما موسىٰ.. فقلبه يتأجج بنور عجيب.. يدفع من يجلس في حضرته الىٰ اكتشاف كل سوءات هارون.. الصوفي هروب من العالم.. وموسىٰ احتجاج صامت ضد كل ما يجري من انتهاك لفطرة الإنسان.

همس موسىٰ وهو يتناول شيئاً من الشواء مع الخبز.

ـ رحمَ اللهُ أبا ذر . . فلقد كان يقول : جزىٰ الله الدنيا عني مذمّة بعد رغيفين من الشعير . . اتغدّىٰ باحدهما ، واتعشّىٰ بالآخر .

تمتم حسّان وقد ارتسمت أمامه مشاهد قديمة :

ـ أمّا انا فقد شهدت مأدبة للخليفة . . كانت تحوي ثلاثين نوعاً من الطعام . . ورأيت فيها لحوم طيور اصطيدت في جزر بعيده .

اعتصم موسىٰ بالصمت . . الصمت الذي يدوّي بكل شيء . .

نهض حسان لينام . . ونهض موسىٰ للقيام . . اتجه بكلّيته الىٰ السماء المرصعة بالنجوم . . فبدا في تلك اللحظة كمن يتّحد بالكون.. تمتم الرجل الذي مسّته السماء :

ـ اللهم انّي طالما كنت اسألك أن تفرغني لعبادتك وقد استجبت . . فلك الحمد . .

ان عظمة الإنسان وخلوده تكمن في اكتشافه ينبوع النور . . شيء يشبه اندماج القطرة الضائعة في البحر المحيط . . شيء يشبه ذوبان المطر في الينابيع . .

شيء يشبه تدافع امواج النهر صوب البحار الواسعة . . شيء يشبه احساس البذرة بنور الشمس . . هكذا بدا موسىٰ في قلب الظلمات وهو يدعو بصوت شجي:

ـ توكلت علىٰ الحيّ الذي لا يموت..

وتحصّنت بذي العزّة والجبروت..

واستعنت بذي الكبرياء والملكوت..

مولاي استسلمت اليك.. فلا تسلمني..

وتوكلت عليك.. فلا تخذلني..

والتجأت الىٰ ظلّك البسيط.. فلا تطرحني..

انت الطلب.. واليك المهرب..

تعلم ما أخفي وما اعلن.. وتعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. فامسك عني اللهم أيدي الظالمين من الجن والأنس اجمعين واشفني وعافني.. يا ارحم الراحمين..

القافلة تطوي المسافات حتىٰ اذا وصلت «الخريبة» وهي اطلال مدينة فارسية في «الأرض القريبة من الماء البعيدة عن السماء»[31] جاء رجل يدعىٰ عبد الله كان همّة أن يلقىٰ موسىٰ..

انه سرّ عجيب دفع بالرجل الازدي الىٰ أن يتحمّل المشاق من أجل أن يحظىٰ برؤية رجل مدني..

شعر الرجل الأزدي وهو يجلس في حضرة موسىٰ أنه يلج الملكوت؛ وتعجّب كيف يمكن لهؤلاء ان يضعوا القيود في أيدي

رجل هو حفيد لمحمد وحامل لميراثه . .

بالرغم من الاجواء الحزينة التي لفّت اللقاء . . فقد كان الجوّ حيّاً مشرقاً . . يفيض بالحيوية . . هكذا شعر عبد الله وهو يتأمّل الوجه الاسمر الذي تنعكس علىٰ ملامحه آثار النبوّات ؛ همس عبدالله :

ـ عظني يابن رسول الله .

قال موسىٰ وهو يتطلع الى خرائب المدن القديمة :

ـ كفىٰ بالتجارب تأديباً ، وبممر الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكر الموت حاجزاً من الذنوب والمعاصي؛ والعجبُ كلّ العجب للمحتمين من الطعام والشراب مخافة الداء ان نزل بهم . . كيف لا يحتمون من الذنوب مخافة النار إذا اشتعلت في ابدانهم !!

احس عبد الله ان قلبه يغتسل في ينابيع صافيه . . تفيض أملاً ونوراً .

23

الظلام مايزال يغمر البصرة .. عندما دخلها موسىٰ علىٰ قدر، فُتحت أبواب السجن في الهزيع الأخير من الليل .. وسمع صليل السلاسل، ووقع خطىٰ السجانين .. وفي ضوء المشاعل تطلّع الحرّاس الىٰ وجه أسمر تتألق في ملامحه نبوّات غابرة ..

وجه يشيع فيه الطهر والنقاء .. تنعكس في قسماته ثبات الجبل وطهارة الندىٰ وغضب البراكين .

وقف عيسىٰ بن جعفر حاكم البصرة يتطلع الىٰ السجين المدني .. كأنه يبحث عن الشيء الذي أخاف هارون فيه .. وتساءل في اعماقه عن سرّ فزع هارون .. انّ المرء ليشعر بالطمأنينة قربه.. رجل يتطلّع الى السماء اكثر منه الىٰ الأرض ..

اصدر حاكم البصرة أوامره بفظاظة واضحة :

ـ لا يفتح باب السجن إلّا مرّتين .. خروجه للطهور .. وادخال الطعام عليه .

سكت هنيهة وأردف :

ـ يعني أنه لا يغادر حبسه الّا مرّة واحدة ..

هتف حارس ضخم الجثة :

ـ سمعاً وطاعة للأمير .

غادر الأمير السجن وأغلقت الباب بعنف .. وقف الأمير يسترق السمع الىٰ موسىٰ .. كان يريد أن يسمع شتائم السجين الجديد .. صوت شجي يشبه نشيج الميازيب في مواسم المطر .. ينبعث من اعماق الزنزانة المظلمة :

ـ اللهم طالما سألتك أن تفرغني لعبادتك .. اللهم وقد فعلت فلك الحمد ..

طلع الفجر .. وفتحت باب الزنزانة ليزجّ فيها رجل عيناه تبرقان . لا تستقران في محجريهما لحظة واحدة ..

ليس هناك من شك في أن الرجل كان جاسوساً .. يشبه «عيناً» زجاجية مفتوحة ببرود لالتقاط ما يهم «السلطان» .

مكث موسى في حبسه فصولاً اربعة .. اشتعلت فيها ثورات

وثورات.. ثورة في سجستان، وثورة في الاندلس.. وحروب في الشام، وثورة في العراق واشتعلت ثورة يحيىٰ في ذرىٰ جبال الديلم.

الآف الجنود يتدفقون صوب الجبال لاخماد النار في الجبل و«الكلاب» تتشمم رائحة الثائر العلوي وتقتفي آثاره..

رجل مربوع اسمر حلو السمرة حسن الوجه.. تعرف سلالة الأنبياء في وجهه.. يروي الحديث عن الصادق.. وقد تربّىٰ في بيته ونشأ.

الفضل قائد الجيش العباسي يعرف كيف يقهر يحيىٰ.. معه آلاف الجنود وآلاف الدنانير والدراهم.. الذهب ذلك الجيش السرّي الذي لا يقهر.

لقد قهر أبوه ادريس شقيق يحيىٰ.. مات وهو يستنشق قارورة طيب.. ولكن الفضل حمل معه بدار الذهب ليخمد ببريقه لهيب الثورة.

ودارت المعركة.. معركة عجيبة ليس فيها سيف ولا رمح ولم يصهل فيها حصان.. ولم يرمح فيها فارس..

الفضل[32] من جبال الطالقان.. يقاتل يحيىٰ في ذرىٰ جبال الديلم.. الفضل البرمكي يلعب هذه المرّة بالشطرنج.. لعبه يجهلها

يحيىٰ تماماً الفضل يحرّك بيادقه .. ويلوّح بسيف من ذهب يكاد سنا برقه يذهب بالالباب ..

مليون درهم تصل الىٰ زعيم قبائل الديلم هديّة من كنوز هارون ، خبا بريق الثورة في عينية .. وهو يسجد لعجل من ذهب وليذهب يحيىٰ الىٰ حتفه وحيداً ليلق مصيره الغامض حتىٰ لو كان يحيىٰ بن زكريا .

وتلفّت يحيىٰ حواليه فلم يجد ممّن هبّ للثورة سوي سبعين نصيراً .. لقد فرّت الالوف وتبخّرت السيوف ..

ومن فوق ذرىٰ جبال الديلم ، وفيما كانت الغابات الكثيفة تستقبل غيث السماء كان الرجل الذي تربّىٰ في ظلال الصادق يتجه نحو السماء لتنساب كلماته مخاطباً من خلقه حرّاً :

ـ الهي اشكر لك اخافتي قلوب الظالمين ..

الهي إن تقض لنا النصر عليهم .. فانما نريد اعزاز دينك وان تقض لهم النصر .. فيما تختار لاوليائك وابناء أوليائك من كريم المآب وحسن الثواب .

سوف يبقىٰ الجبل عنواناً للحرّية ورمزاً للتحدّي .. وربّما عاد الفارّون ذات يوم .. ربّما يكتشفوا خدعة الذهب لعلّهم لم يذوقوا بعد مرارة الظلم .. واذا ما جبن الآباء فقد يهبّ الأبناء للثورة .. ويغسلوا عن نفوسهم ما اقترف آباؤهم من قبل ..

آه يا ادريس ليتك تدري ما يقاسي اخوك.. وسط الجبال وفي اعماق الغابات.. لقد وفت الصحراء للميثاق وظلّت كما خلقها الله.. مكشوفة.. واسعة طاهرة.. تلتقي دائماً بالسماء.. وتعلّم ابناءها الصفاء..

امّا اخوك يا ادريس فقد بيع الىٰ هارون بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين..

كان يحيىٰ يحدّق في رسالة جاءته من الفضل.. دعوة للسلام والأمن..

ليغمد يحيىٰ سيفه.. وليحيىٰ ما شاء من الشروط..

وكتب يحيىٰ انّا قد اغمدنا سيوفنا علىٰ ان نكون آمنين..

وليمض ذلك هارون.. وليشهد عليه المؤمنون..

ودّع يحيىٰ اصحابه السبعين.. تفرّقوا في الغابات والوديان وسلّم يحيىٰ نفسه الىٰ الفضل.. وهكذا انطفأت الثورة..

الطريق الىٰ بغداد.. طريق الىٰ الموت.. الىٰ القهر.. شعر يحيىٰ انه يكاد يختنق.. ان الهواء في الجبل انقىٰ.. والحياة في عمق الغابات اصفىٰ.. آه يا ادريس.. سوف يموت أخوك كمداً..

بدت بغداد ذلك اليوم حسناء قد خرجت في يوم الزينة.. الأهالي يرتدون أجمل الحلل.. ثياب ملوّنة ومزركشة.. والاسواق

تغصّ بالناس .. لقد حلّ عيد النيروز !

تضاعفت فرحة الفضل وهو يدخل بغداد ظافراً .. جاء يحمل معه أعظم الغنائم .. زعيم ثورة هـزّت جبال الديلم والطالقان .. وهزّت عرش هارون ..

يحيىٰ تُحدق به سيوف ورماح .. يقترب من الجسر .. وقد تألقت مياه دجلة .. الجسر ينوء بالعابرين .. وقد اصطفوا يتطلعون الىٰ موكب الوزير .. وكان هناك قرّاد يرقص قرده ، ويضحك من عنده ..

وقف موسوس يرتدي ثياباً مزّقتها النوائب والايام .. لااحد يدري لماذا هتف بصوت مبحوح :

ـ اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد يهرب من دائه بعد الاستنارة برأيه .. ويصفّد في السلاسل بعدما كان يفوق كل باسل..

خفق قلب يحيىٰ .. وأوجس في نفسه خيفة .. وادرك انه يعبر جسراً يفصل بين عالمين .. وانه لم يعد حرّاً بعد اليوم .. سوف يحصون عليه حتىٰ انفاسه ..

كل شيء بدا غريباً في عيني يحيىٰ .. انه وحيد الآن .. امتلأت عيناه دموعاً وهو يسلم سيفه الىٰ حرّاس القصر ..

هارون يفيض حيوية .. وجهه يطفح سروراً بهدايا النيروز

كل الوجوه كانت تطفح بالفرح.. الّا وجه يحيىٰ..

لماذ هذا الحزن يا يحيىٰ ألا انك اصبحت وحيداً ؟.. هل اشتقت الىٰ الجبل ؟. أم تراك شعرت بموت اخيك.. وقد استنشق قارورة الموت..

هبّ هارون وهو يرىٰ يحيىٰ.. وأخيراً استسلم يحيىٰ.. هذا هو خصمه الذي سلبه حلاوة النوم عاماً كاملاً..

صعّد هارون نظره.. وهمس في نفسه: لولا ألقي عليه اساور من ذهب.. ايمكن حقّاً أن تغلب جبّة الصوف هذه حلّته السوداء المخيفة.. ترىٰ بم يفوقه يحيىٰ ؟! القىٰ هارون نظرة تشفّي وهتف في اعماقه: انا اكثر منه مالاً واعزّ نفرا.



24

جلس عيسىٰ بن جعفر حاكم البصرة يصغي الىٰ آخر الاخبار في خليج البصرة .. لصوص البحر مايزالون يهاجمون السفن المبحرة باتجاه الهند .. وربّما هاجموا السواحل ايضاً[33] ..

لم يعد السكوت ممكناً اكثر من ذلك .. بدا عيسىٰ ساهماً فقد كان يفكر في شيء اقلقه .. رسالة هارون وفيها : أن اقتل موسىٰ وليدع ربّه .. منذ الصباح وهو يفكر ماذا يفعل ؟ .

نهض الامير آخذاً طريقه صوب السجن ؛ مضىٰ الثلث الأول من الليل .. اصبح الهواء لطيفاً خفّت رطوبته قليلاً فارقه شعوره بالضيق .

الصمت يهيمن داخل السجن ما خلا خطىٰ الحارس الذي يرافقه .. توقف أمام الزنزانة القىٰ نظرة من خلال كوّة صغيرة .. كانت هناك شمعة تلفظ انفاسها الأخيرة وعلى ضوئها رأىٰ ثوباً

مطروحاً ورأىٰ رجلاً ينظر اليه يحدّق فيه ..

تساءل الأمير وقد افتقد موسىٰ :

ـ ولكن أين موسىٰ ؟ !

ـ ذاك يا مولاي ؟

ـ هذا ثوب مطروح !

ـ هو موسىٰ يا مولاي .. وله سجدة طويلة .. وقد كنت احسبه نائماً .. ولكني أراه يقوم للصلاة من غير أن يجدّد وضوءً !

ـ اما انه من رهبان بني هشام !!

سكت هنيهة وأردف آمراً :

ـادع لي الرجل ..

فتح الحارس القفل واشار الىٰ الرجل البصري بالخروج .. نهض الرجل بشيء من الفتور .. غادر الزنزانة وهو يتأمل ثوباً مطروحاً !!

أُغلقتْ الباب ومايزال الثوب مطروحاً .. نظر الأمير الىٰ الرجل البصري قال الحاكم مستفسراً :

ـ مالك لا تتكم ؟ !

ـ وما عساني أن اقول أيها الأمير ؟ .. انّنى لم أرَ له نظيراً في عبادته وتهجده .. يصوم النهار كلّه ويحيي الليلَ كلّه إلّا قليلاً .. ولم

اره مرّة واحدة يتضجّر فيها من السجن .. بل انني سمعته يشكر الله علىٰ أن فرّغه للعبادة والصلاة !!

قال الأمير وهو يحاول البحث عن مبرّر لتنفيذ أمر هارون :

ـ أما سمعته يشتم الخليفة أو يشتمني ؟

ـ أبداً .

ـ والدعاء .. اما سمعته يدعو علىٰ أحد ؟

ـ ابداً .. انه يدعو لنفسه ولغيره بالمغفرة .

قال الحاكم وهو يحدّق في وجه الرجل البصري وقد اختفت ملامح الجاسوس تماماً :

ـ مالك تختنق بصوتك ؟!

ـ والله يا سيدي لقد بهرني بعبادته .. انه ليبكي من خشية الله حتىٰ تخضلّ لحيته .. اما اذا قرأ القرآن قرأه بحزن .. لكأنه يخاطب انساناً !![34]

سكت البصري قليلاً واردف وهو يتذكر شيئاً :

ـ هذا أوان تلاوته !

خيّم صمت مهيب حتىٰ لم يعد أحد يسمع شيئاً سوىٰ انفاساً متقطعة .. مرّت اللحظات هادئة كنهر يجري بسلام .. لكأن المكان يستمد سكينته من اعماق رجل مدني سجين .. تناهىٰ الىٰ أسماع الثلاثة صوت شجي .. صوت فيه نشيج الميازيب في

مواسم المطر :

ـ «انّ قارون كان من قوم موسىٰ فبغىٰ عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة اذ قال له قومه :

لا تفرح انّ الله لا يحب الفرحين . . وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحبّ المفسدين .

قال : انما أوتيته علىٰ علم عندي .

أولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشدّ منه قوّة واكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون .

فخرج علىٰ قومه في زينته .

قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انّه لذو حظ عظيم .

وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلّا الصابرون .

فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

واصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون :

ويك ان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن

من الله علينا لخسف بنا .. ويك انه لا يفلح الكافرون .

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين»[35] .

تبادل الثلاثة في ضوء المشاعل نظرات ذات معنىٰ .. وهمّ البصري بالعودة الىٰ الزنزانة فاعترضه الحاكم :

ـ الىٰ اين ؟

ـ الىٰ مكاني :

ـ لقد انتهت مهمّتك .

ـ اذن دعني هذه الليلة فقط .

ـ عجباً لك ! لقد جئنا بك جاسوساً عليه .. أتراك نسيت ذلك؟!

تمتم البصري بلهجة لا عهد له بها :

ـ إن الله يفعل ما يشاء .

هزّ الأمير كتفيه كمن يعجز عن حلّ لغز والتفت الىٰ الحارس :

ـ ليبق هذه الليلة فقط .

ـ سمعاً وطاعة للأمير ؟

فتحت باب الزنزانة ثم أغلقت .. وولج البصري ليتخذ مكانه.. وجلس كما يجلس العابد في محرابه .. فيما غادر الأمير السجن .. وكان وقع خطاه يتضاءل شيئاً فشيئاً حتىٰ اختفىٰ ..

شعر البصري بأن عاصفة من النور تهبّ علىٰ قلبه .. وانّ هناك هيكلاً صخرياً يتهافت في اعماقه .. لكأنه يصغي الى دويّ الانهيار وتراكم الانقاض .. انه يولد من جديد .. يولد انساناً آخراً .. انساناً ينفتح قلبه علىٰ عالم يزخر بالنور .. والحب والسلام ..

طلع الفجر وآن للبصري أن يودّع النور الذي ساقه القدر اليه..

ومدّ موسىٰ يده ليصافحه .. شعر البصري أن يداه ترتعشان وهما تحتضنان كف موسىٰ .. انعقد لسانه لحظات .. وقد غمره شعور بالسكينة .. ان عيناه تنفتحان علىٰ الكون كلّه .. وان روحه تحلّق في سماوات لا نهاية لها .. وانه يستحمّ تحت رشاش النور .. يستحمّ ليتطهّر من كل الأدران .. وان الشيء السماوي الذي احسّ به ينتشر في كل كيانه .

ومضىٰ البصري الىٰ قصر الحاكم ليستأذن الأمير بعد ان انتهت مهمته .. كان الأمير واقفاً في شرفة القصر قال له :

ـ اتحبّ أن تقوم بمهّة أخرىٰ ؟

نظر البصري متوسّلاً :

ـ إعفني ايها الأمر .

اتجه الأمير الىٰ كرسيه .. واختطف رسالة كان قد سطّرها

قبل لحظات :

ـ لا تخشَ شيئاً . . تحمل كتابي الىٰ الخليفة . . وفيه : انـي سأخلي سبيل موسىٰ..

ومضت عينا البصري بالأمل . . سوف يطوي المسافات من أجل أن يحطّم السلاسل والقيود . . ليعود الرجل المدني الىٰ أهله . . وتنتهي ليالي الغربة والسجن والعذاب . .

25

هـــارون مـــع حـاجبه ومســرور يـتمشون خـلال اشــجار البرتقال التي تـلتف حـول بـحيرة صـغيرة . . وقـد تألقت مـياهها الصافية تحت ضوء الصباح . . بدا هارون متوتراً وقد بـذل جـهداً جبّاراً في اخفاء مشاعره . . قـال الفـضل[36] بـن الربـيع وهـو يكـيد لسميّه الوزير الفارسي :

ـ أجل يا أمير المؤمنين . . انا متأكد من ذلك . .

توقفوا في ظلال شجرة برتقال . . وقد بدت ثمارها الناضجة وسط الخضرة الطاغية شموساً صغيرة . .

أردف الحاجب وهو يخفت صوته :

ـ لقد ذهب الىٰ الحج . . وزوّده بالمال .

من بعيد بدا الفضل بن يحيىٰ يتهادىٰ في مشيته .

التفت هارون الىٰ حاجبه :

ـ انصرف . .

برقت عينا ابن الربيع وهو يبتسم ابتسامة فيه مكر وخبث .

احنىٰ الوزير رأسه للخليفة . . ولم ينس أن يحيّيه مذّكراً أياه بأخوّة[37] صنعها اللبن:

ـ السلام علىٰ أخي أمير المؤمنين .

كان هارون مايزال واجماً . . أوجس الفضل في نفسه خيفة وخيّل اليه أنه رأىٰ الحاجب يمرق بين الاشجار . . هتف في اعماقه بغيظ :

ـ متىٰ يكفّ هذا العربي عن دسائسه ؟ . .

سار هارون ووزيره وخلفهما مسرور ؛ سيفه في عاتقه يشبه ثعباناً غافياً . .

رمق هارون وزيره وقال بلهجة تبدو عاديّة تماماً .

ـ ما أخبار يحيىٰ ؟

ـ مكبّل في الأغلال .

ـ وحياتي ؟

أدرك الفضل ان هارون يعرف كل شيء فقال بلهجة فيها توسّل :

ـ وحياتك اني أطلقته . . سألني برحمه من رسول الله فرققت.. ولقد أخذت عليه الميثاق أن . . قال هارون مقاطعاً :

ـ حسناً فعلت . . لقد كان في عزمي ان أُخلي سبيله وقعت عينا هارون علىٰ برتقالة ناضجة هتف متضاحكاً :

ـ لقد اشتهيت هذه الثمرة !

نظر الفضل كانت بعيدة عن متناول اليد ، قال مبتسماً :

ـ ليس الىٰ اقتطافها من سبيل .

التفت هارون الىٰ سيّافه :

ـ ما رأيك يا مسرور ؟

صوب مسرور نظرات قاسية ، رمق البرتقالة بنظرات مشتعلة.

كانت الثمرة تتدلىٰ من غصن ممتلئ . .

تقدّم نحو الجذع استلّ سيفه ، ووقف وقفة الجلّاد ثم أهو بسيفه الىٰ اسفل الجذع . . نشب السيف الىٰ نصفها . . ثم ركل أعلاه. . هوت الشجرة عند قدمي هارون . .

كحورية شهيدة .

وامسك هارون بالبرتقالة وانتزعها بعنف . . شقّها نصفين رمىٰ نصفها الىٰ مسرور . . والتهم النصف الآخر فيما ظل الوزير

ينظر مبهوتاً.. قال هارون:

- واذن لقد كان هناك من سبيل لاقتطاف الثمار.

قال هارون دون مقدّمة:

- ولكن هناك من يقول ان يحيى ينوي الثورة!

- من هو؟

- عبد الله بن مصعب بن الزبير.

-اتصدّق هذا يا أمير المؤمنين.. سوف يعود يحيىٰ ونجمع بينهما.

- وما أدراك انه سيعود.. لقد فرّ يحيىٰ ايها الوزير.

- سيعود يا أمير المؤمنين لقد عاهدني علىٰ ذلك..

سكت هنيهة واردف:

- انا اعرف يحيىٰ.. سيعود ولا شك.

كعادته في كل ما يحيط حوله.. انتابته الهواجس.. لعلّ هناك اتفاق بين يحيىٰ والفضل.. ان بني برمك يطمحون.. للمزيد من النفوذ.. ليس هناك حدّ لطموحاتهم.. ويحيىٰ أفضل جسر لذلك.

كان هارون لا يصدّق في قرارة نفسه ادعاءات حفيد الزبير انه يعرف ما ينطوي عليه من احقاد دفينة..

ولكن ليس هناك من مفرّ لتصديق كل شيء من أجل التخلّص من يحيىٰ.

ان في قرارة الطاغية رعب.. رعب يتحول الىٰ قسوة لا نهاية لها..

انطوىٰ موسم الحج وعاد يحيىٰ.. وقد تشرّبت روحه التوحيد.. عاد مترعاً بالايمان.. وأضحت الدنيا في عينيه كما عهدها من قبل لهو ولعب وزينة وتفاخر.. وما من شيء يمكنه ان يساوي الحرّية.. عاد يحيىٰ وقد حاكت العناكب شباكها عاد ليجد الابواب قد اغلقت دونه إلّا باب «المطبق».

قال هارون وهو يحدّق في وجه لوّحته شمس مكة:

- أيّنا أحسن وجهاً يا يحيىٰ.. انا ام انت ؟

نظر يحيىٰ الىٰ وجه هارون.. وجهه الأبيض تموج فيه العافية.. بياض يشف عن حمرة خفيفة قال بصوت خافت:

- بل انت يا أمير المؤمنين.. انك لأنصع لوناً واحسن وجهاً.

قال هارون مغترّاً:

- فأينا أكرم واسخىٰ أنا أم انت ؟!

مال لهذا المغرور.. الأحمق.. الذي يملك خزائن الأرض، ويخاطب الغيوم: اين ما تمطرين فخراجك اليّ ؛ اجاب يحيىٰ ممتعضاً:

ـ وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ ! وما تسألني عنه ، انت تجبىٰ اليك خزائن الأرض وكنوزها . . أما انا فاتمحّل من سنة الىٰ سنة.

اطـرق هـارون وقـد شـعر بـالخزي ، ثـم قـال وقـد تـخفىٰ الشيطان في اعماقه :

ـ اينا أقرب الىٰ رسول الله . . أنا أم انت ؟ !

ـ لقد اجبتك عن خطتين فاعفني من هذه .

ـ كلّا . . لا بد من ذلك .

سأل يحيىٰ :

ـ لو عاش رسول الله وخطب اليك ابنتك اكنت تزوّجه ؟

ـ اي والله .

ـ فإن خطب مني ابنتي أكان يحلّ لي أن ازوّجه ؟

ـ لا .

وهنا هتف يحيىٰ :

ـ هذا جواب ما سألت .

شعر هارون أن سكيناً تغوص في قلبه ان يحيىٰ يتحدّث كما يتحدث موسىٰ . . وكيف لا وقد تربيا معاً في حضن واحد . . صرخ هارون :

ـ اجلدوه :

انهالت السياط بـقسوة . . كـان الجسـد الآدمـي يـتأوّه بألم

السياط تلهب الجلد وتحرق اللحم ..

هارون يراقب متلذذاً يحيىٰ وهو يتلوّىٰ .. السياط ما تزال تنهال بقسوة .. صاح يحيىٰ مستنجداً ببقايا الإنسان:

ـ الله والرحم .. الله والقرابة .

لقد مات الإنسان في اعماق هارون:

ـ ليست بيني وبينك قرابة .

ـ وعهد الأمان يا هارون ؟!

هتف هارون جذلاً:

ـ لقد مزّقه القاضي .. انه عهد باطل ..

تذكر يحيىٰ كيف أقدم وهب القاضي علىٰ تمزيق العهد من أجل حفنة من الدراهم .. تذكر كيف بصق فيه ومزّقه وعندها ادرك يحيىٰ انه سيقتل ..

التفت هارون الىٰ جلاوزته:

ـ كم أجريتم عليه ؟

قال سجّان غليظ .

ـ أربعة أرغفة وثمانية أرطال من الماء ..

ـ اجعلوه علىٰ النصف ..

غادر هارون ساحة السجن، وكانت النجوم تسطع في السماء.

تمنىٰ يحيىٰ وهو يحدّق في النجوم.. لو انه كان في سفوح جبال الديلم يقاتل.. انه لم يسلّم نفسه حبّاً بالحياة.. كانت حربه خاسرة ولم يرد أن يجازف بحياة الآخرين.. من اجل هذا جاء الىٰ بغداد..

26

بدأت ليلة العذاب الثانية . . وها هو يحيىٰ يقاسي الجوع . . المعدة الخاوية ، والسياط القاسية فجرّت كل كوامن الألم في جسده الذاوي . .

السياط تنهال برتابة ، وهارون يراقب بصمت حفلة التعذيب.. ان مئة سوط تكفي لتحطيم الجسد البشري . . ولكن الروح ما تزال تتشبث من اجل استمرار الصراع . .

سأل هارون جلوازاً يقف قريباً منه :

ـ كم أجريتم عليه ؟

ـ كما أمرت يا مولاي . . رغيفين واربعة ارطال ماء .

هتف هارون بقسوة :

ـ اجعلوه على النصف .

لم يعد يحيىٰ يميز ما حوله من المرئيات . . ولم يعد يسمع

من الاصوات.. سوىٰ كلمات لا معنىٰ لها.. وحدها خطىٰ السجانين كان يعيها.. اذا ما اقتربت منه أو ابتعدت..

بدأت ليلة العذاب الثالثة.. كان يحيىٰ قد اضحىٰ مجرّد شبح لإنسان.. ان روحه علىٰ وشك الرحيل..

قال جلواز لهارون:

- انه مريض يا مولاي..

- كم اجريتم عليه ؟

- رغيف ورطلين من الماء.

- اجعلوه علىٰ النصف..

غدا يحيىٰ مجرّد حطام بشري، غارت عيناه.. اصبح لسانه خشبة محترقة..

حلّت الليلة الرابعة.. جاء رجال غلاظ يتقدمهم «مسرور»؛ ان رؤية مسرور وحدها تعني النهاية.. أدرك السجّانون ان رأس السجين سيسقط.

لفّ الرجال يحيىٰ في ملاءه وحملوه الىٰ خارج «المطبق»، مجموعة خيول وقفت تنتظر في ظلمة الليل.. لم يعد يحيىٰ سوىٰ انسام تتردد بصعوبة.. انفاس بعدد لحظات العمر الذي وصل نهايته..

انطلقت الخيول صوب «الرافقة»[38].. هارون يبني عاصمة

جديدة علىٰ ضفاف الفرات . . كما بنىٰ جدّه من قبل عاصمة علىٰ ضفاف دجلة . .

الليل ظلمات يتراكم بعضها فوق بعض . . وقد بدت المدينة التي لم تكتمل بعد اشباحاً لكائنات خرافية..

مجموعة من عمّال البناء كانوا يتحلقون حول اسطوانة . . كغربان جائمة حول ضحية لم تلفظ انفاسها بعد . .

حمل الرجال الغلاظ انساناً محطّماً . . انفاسه هادئة . . منتظمة. . بدا يحيى مستسلماً لنهايته . . أدرج الإنسان داخل الاسطوانة . . وبادر عمّال البناء الىٰ عملهم. كانت سافات الآجر ترتفع شيئاً فشيئاً وقد اختفت النجوم . . حجبها الآجر. . لم يعد هناك من ثقب يمكن للنسيم أن يزوره . .

مرّت اللحظات ثقيلة . . الهواء ينفد شيئاً فشيئاً . . ضاق صدره. . شعر رغم تحطّم جسده أنه يختنق مدّ يدية هنا وهناك . . كانتا تصطدمان بجدران قاسية . . انه يريد أن يملأصدره بالهواء ولكنه يختنق كما لو يغوص في أعماق سحيقة بلا قرار..

الذكريات تتدفق في خياله كنهر صاخب . . مراتع الصبا . . الصحراء الواسعة . . الاحبّة والديار . . قمم الجبال المكللة بالثلوج. . نسائم الربيع في غابات الديلم . . كفّ النهر عن تدفّقه . . لقد ارتطم بصخرة عملاقة . . صخرة لها شكل هارون . . بعينيه البرّاقتين

كعيني نسر..

ان الضحية لا تعرف شيئاً اكثر قسوة من الجلّاد.. انه يعني انعدام الرحمة.. انتحار الإنسانية.. ترىٰ ماذا يفعل هارون في تلك اللحظات.. اللحظات التي يلفظ فيها يحيىٰ انفاسه الأخيرة في اسطوانة مظلمة بمدينة الرافقة؟ لعلّه الآن.. يعانق حسناء فارسية أو رومية.. ربّما يكرع كؤوس الخمرة منتشياً.. وقد يصغي الىٰ أنغام الغناء تصدح بها اخته «عليّه» أو «مغنّيه» الموصلي.. أو لعلّه الآن مسترخياً في زورقه المذهب ينساب في مياه دجلة..

توقف قلب يحيىٰ وساد سكون رهيب فضاء الاسطوانة المخنوق.. عالم ليس فيه هواء ولا نجوم ولا قمر.. هكذا تنطفئ حياة الإنسان مثل شمعة تخبو فجأة لا يشعر بها أحد..

بغداد غارقة في منتصف الليل.. وزورق مزركش بالذهب ينساب فوق مياه دجلة آخذاً سمته صوب «الشماسية» حيث ينهض قصر جعفر البرمكي وزير هارون الجديد.. بدا القصر وقد غمرته أنوار المشاعل والقناديل صَدَفة انتشلها الجنّ ليبهروا بها الانس[39]..

ولج هارون القصر المغمور بالنور وروائح العطور..

جعفر يرتدي حلّة المساء.. يرفل بالحرير والديباج.. وفتيات حسان يخطرن في أروقة القصر..

اتخذ الخليفة مكانه فوق سرير وثير .. جعفر يعرف كيف يدخل السرور علىٰ سيّده .. الطعام أولاً ثم الشراب وبعدها يأتي الغناء ..

جاءت اربع فتيات يحملن مائدة ملوّنة فيها ما لذ وطاب .. من الشواء .. سماني وقطا وحمام .. وفيها لوزينج وفالوذج .. صنعتها أيدي فارسية ماهرة ..

تهلل وجه هارون بهجة وهو يرىٰ اصطفاف الآنية ..

آنية لم يرها حتىٰ في قصره .. وكانت نسائم العطر تملأ أنفه كلما خطرت حسناء أمامه ..

دارت اقداح الراح .. وحلّقت النفوس المسحورة بالفتنة في عوالم يصنعها الخيال .. وخيّل لهارون انّه في الجنّة ..

التفت الىٰ وزيره قائلاً :

ـ الشراب بلا سماع يورث الصداع ..

صفق جعفر بيديه .. فجاء خادم يحمل كرسياً من عاج مطعم بذهب وهاج .. وجاءت خلفه «فوز» بقدّها الجميل ووجهها المنير ..

جلست «فوز» في مكانها ؛ وضعت عوداً هندياً في حجرها وانحنت عليه برقّة كما لو انها تريد أن ترضع طفلاً وديعاً .. وانساب الصوت الإنساني ممتزجاً مع الموسيقىٰ ليحلق هارون

في عوالم مترعة بلذائذ الجسد..

وفي تلك اللحظات ندّت عن يحيىٰ آهة ألم أخيرة ليغفو بعدها بسلام..

27

ان في اعماق الطاغية رعب ، انه يجمح نحو حياة بـوهيمية مستغرقاً في لذائذ لا نهاية لها . . مآدب وفتيات جميلات ، وكؤوس مترعة بالخمرة . . ولكن هناك من يقف بوجهه ليقول : لا ، من اجل هذا كان هارون يعيش في دوّامة من مخاوف يصنعها بنفسه .

انه الخواء الذي جعل من النفس الفقيرة طاغية . ترىٰ أي رعب دفع هارون الىٰ حمل موسىٰ من البصرة الىٰ بغداد مثقلاً بالأغلال ؟ !

ان شهوراً طويلة من العذاب والقهر قد غيّرت ولاشك من موسىٰ . . سوف يبدو اقلّ تحدّياً . . ولعلّه سيكون ليّن الجانب في بغداد . . حيث يمكن لهارون أن يبهره بملكه العريض ، بقصوره المشيّده . .

وصل موسىٰ بغداد علىٰ حين غفلة من أهلها وتعمّد هارون

ان يستقبل غريمه خارج قصره المنيف..

اصطف الجند على جانبي الطريق المؤدّية الى القصر، ووقف هارون فوق رخامة الباب، فبدا بطوله الفارع وحلّته السوداء فرعوناً يكاد يقول:

- يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري..

هيمن صمت مهيب ما خلا كلبة هارون المدلّله[40]؛ تتمسح عند قدميه وخشخشة الحلي الذهبية توقظ في النفوس عجلاً أحرقه موسى بن عمران وذرّ رماده في البحر.

وجاء موسى بن جعفر ينوء بثقل الحديد.. ماتزال عيناه تتألقان بنور عجيب، هناك في أعماق هذا الرجل الأسمر عالم مفعم بالسلام المطلق.. فهذا الرجل المدني يحمل ميراث النبوّات الغابرة..

تعمّد هارون أن يقف موسى في ظلال القصر المنيف يريد أن يقول له: انظر يا موسى الى ملكي العريض.. الى مملكتي الواسعة.. الى جنودي.. وقد وقفوا كما لو ان على رؤوسهم الطير.. وقفوا خاشعين أمامي.. ان كلمة واحدة مني تجعلهم كالذئاب سوف يمزقونك إربا إربا..

انظر يا موسى الى مياه دجلة كيف تتدفق تحت قدمي..

انظر يا موسى الى قصوري.. الى هذه النقوش.. الى هذه

الزخارف .. اما انت فلا تـملك شـيئاً ان بـناتك جـميعاً يـا مـوسىٰ ولاريب لا يملكن عشر ما تملكه كلبتي من الذهب .

قال هارون لموسىٰ :

ـ ما هذه الدار ؟

ان موسىٰ يخترق جدران الزمن الصدئة انه لا يـرىٰ سـوىٰ قصوراً غارقة في الماء والطين .. لا يرىٰ سوىٰ خرائب تنعق فـيها البوم .. قال موسىٰ وهو يحطّم غرور قارون :

ـ هذه دار الفاسقين .. «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنون بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يـتخذوه سـبيلاً ، وان يـروا سـبيل الغـي يـتخذوه سبيلاً»..

تساءل هارون ليتأكد من «حدود فدك» :

ـ دار من هي ؟

قال موسىٰ وهو ينظر الىٰ سنن التاريخ :

ـ هي لشيعتنا فترة ، ولغيرهم فتنة .

ـ ما بال صاحب الدار لا يأخذها ؟

ـ اخذت منه عامرة ولا يأخذها إلّا معمورة .

حدّق هـارون فـي مـوسىٰ .. انـه وحـيد .. مـثقل بـالاغلال

والسلاسل والقيود..

ـاين شيعتك يا موسىٰ ؟

ـ انهم في رحم الأيّام.. في زمن لم يولد بعد:

تمتم الرجل الذي يحمل ميراث النبوّات بصوت شجيّ:

ـ «لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتىٰ تأتيهم البينة».

عربد الشيطان في أعماق من آتاه الله الكنوز:

ـ انحن كفّار ؟!

اجاب موسىٰ بوقار سماوي:

ـ لا؛ ولكن كما قال الله تعالىٰ: «الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار».

استيقظ الرعب في اعماق الطاغية.. الرعب الذي يحيل كل شيء أخضر الىٰ هشيم تذروه الريح..

هتف الفرعون الكامن في الاعماق: انا اعرف كيف اقهرك يا موسىٰ.. بغداد تختلف عن كل المدن.. انها ليست المدينة ولا البصرة.. ولا حتىٰ الكوفة.. انها مدينة لا ترحم.. مدينة تنام في النهار وتستيقظ في الليل.. مدينة يموت فيها الفقراء.. ويصدح فيها الغناء فيكون أصحابه اغنياء..

صرخ هارون:

ـ ايها الحاجب.

وامتثل الفضل بن الربيع.. انه رهن الاشارة.. من اجل الوصول الىٰ الوزارة.. اشار الحاجب الىٰ قائد الشرطة باقتياد السجين الىٰ قصره.. انه سجين خطير.. في وجوده خطر علىٰ النظام كلّه.. انه يهدّد كل قصورهم المشيّدة بالزوال.. انه صرخة حق في عالم الاباطيل..

ان «المطبق» لا يحتمل وجود رجل خطير مثله..

تجمعت سحب رمادية في السماء، وبدا الفضاء حزيناً..

فقد غابت الشمس خلف ركام الغيوم.. وضيّعت الاشياء ظلالها، فبدت باهتة لا معنىٰ لها.

وفي ذلك العام اصدر خليفة المسلمين هارون الرشيد مرسوماً قضىٰ فيه بحلّ الجيش الخراساني المؤلف من نصف مليون جندي..

وفي ذلك العام ضربت الزلازل شرق المتوسط فتهاوت منارة الاسكندرية[41] وثارت أمواج البحر.. وفي ذلك العام بدأ فصل مثير من صراع مرير.. بين دنيا عريضة، ودين عميق، صراع يشبه صراع ايوب مع الشيطان، وصراع موسىٰ مع قارون.



28

منذ منتصف الليل ، والسحب تتحشد في سماء بغداد . . الفضاء مشحون بصمت مهيب . . صمت ينتظر اصطكاك ركام الغيوم..

غرق القمر تماماً في لجّة السحب . . فجأة ظهر سوط سماوي، اضاء الفضاء . . ودوّىٰ رعد رهيب . . وتدفق المطر . . غزيراً .

رشاش المياه الطاهرة ينبثق من سماء تنوء بالغيوم . . مخزونة بالبروق وبالرعود . .

دجلة يجري كشأنه منذ آلاف السنين . . تتدافع أمواجه . . وتذوب فيه قطرات المطر .

بدت بغداد قبيل الفجر مدينة مهجورة فيما كانت البروق

تشتعل في السماء ، والرعود تجلجل في فضاء لا نهائي .

وهناك في قبو تحت الأرض في قصر علىٰ شطآن دجلة يقبع رجل أسمر قد برت جسده روح عظيمة . .

لا شيء في القبو سوىٰ قنديل صغير يتحشرج ضوؤه . . لاشيء سوىٰ سلاسل وقيود . .

هناك وفي ذلك الصمت المهيمن ينساب صوت شجي يرتّل كلمات لا تنتمي الىٰ حضارة الأرض ؛ كنهر هادئ كانت الكلمات تنساب :

ـ «الله يعلم ما تحمل كلّ انثىٰ وما تغيض الأرحام ، وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . .

عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» .

الله تلك الحقيقة المطلقة وسرّ الوجود ، المطلق الذي لا تحدّه حدود .

«سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ، ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ؛ ان الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيّروا ما بانفسهم ؛ واذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال» .

الصوت الشجي مايزال ينساب ممتزجاً مع نشيج الميازيب

ورشاش المطر:

«هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال».

الرعود ما تزال تجلجل في الفضاء اللانهائي، والبروق ماتزال تشتعل والمطر مايزال ينهمر بغزارة:

«ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون في الله، وهو شديد المحال».

في ذلك الزمن المرّ.. وقد ذرّ الشيطان قرنيه يعربد ويدمّر، فتهتز القلوب، وترجف الافئدة، وتستحيل الاشياء الراسخة الىٰ اهتزازات لا تعرف الثبات في ذلك الزمن عاش موسىٰ..

رجل يحمل ميراث الأنبياء.. وكمن يبحث عن ظله في يوم غائم كان الإنسان يبحث عن ركن شديد شيء يشدّ به قلبه.. في ذلك الزمن كان موسىٰ يقود سفينة نوح من أجل أن لا تغرق في الطوفان..

تساءل الإنسان الحائر:

ـ الله.. ما معنىٰ الله؟

قال موسىٰ:

ـ الله الذي استولىٰ على ما دقَّ وجلّ .

تساءل الإنسان الحائر :

ـ أكان يعلم الأشياء . . قبل خلق الاشياء . . أو بعد خلقها ؟

قال موسىٰ :

ـ لم يزل الله عالماً بالاشياء قبل أن يخلق الاشياء كعلمه بالاشياء بعدما خلق الاشياء .

ـ والارادة ؟ هل هي من الله أو من الخلق ؟

ـ الارادة من الخلق الضمير ، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالىٰ فارادته احداثه لا غير لانه لا يهمّ ولا يفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق ، فارادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له : كن فيكون .

ـ بلفظ !! يقول ؟ :

ـ بلا لفظ ولا نطق ، ولا لسان ولا همّة ولا تفكّر .

ـ اذن كيف ؟ !

ـ لا كيف لذلك ، كما انه لا كيف له .

ـ وجسمه وصورته ؟

قال موسىٰ وهو يندك في اعظم الحقائق واكبرها بل الحقيقة

الأحدية في عالم الاباطيل :

ـ سبحان من ليس كمثله شيء.. لا جسم ولا صورة[42] ..

المطر مايزال يتدفّق بغزارة ودجلة تتدافع امواجه.. وقد هجع الناس جميعاً.. الوزراء والفقراء السجناء والسجانون، وحده الله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم.. يسبح الرعد بحمده، والملائكة وينشئ السحاب، ويرسل البروق.



29

هناك نور عجيب . . نور لا ينتمي الىٰ شمس أو قمر . . نـور يتدفق في اعماق الإنسان . .

ومهما تكاثفت ظلمة السـجن فـي اعـماق الأرض ، فأنـها لا تستطيع أن تطفئ ذلك السراج الوهاج ؛ أو توقف تدفق ذلك الشلّال المضيء . .

من أجل هذا قال يوسف قبل آلاف السنين : ربّ السجن احبّ اليّ مما يدعونني اليه .

وعندما يقف الإنسان علىٰ لغز الكون ، تتدفق ينابيع السلام في ذاته . . فتستحيل ظلمة السجن عند ذاك الىٰ نور . . والسـلاسل والحديد الىٰ حرّية . . غير أن الروح وهي ماتزال في أهاب الجسـد تتوجع كلما توجع وتئن كلما أنّ . . فالجسد مظهر الروح والمـرآة التي تنعكس فيها اشعة الحياة . . وليس هناك ما هو آلم للنفس من

السجن . . انه عذاب الروح . . عذاب يدركه الهدهد يوم عاد من أرض بلقيس . . فالسجن يعني توقف تيّار الطبيعة . . يعني احتراق زرقة السماء . . تكسّر الاجنحة . . وتوقف الجداول . . واندثار الجمال . . يعني موت الاشجار . .

من اجل هذا كان موسىٰ يتأوّه . . يتألم ، وليس هناك من يسمع النجوىٰ سوىٰ الله . . موسىٰ يتوق الىٰ الخلاص . . الىٰ الاتحاد مع الكون . . والاندماج في تيار الطبيعة وهي تتجه الىٰ الله .

الكلمات المنبعثة من اعماق الروح كلمات تلج عالم الخلود.. عندما يكتشف الإنسان سرّ الوجود .

وليس هناك من تواصل مع الحقيقة المطلقة إلّا أن يجثو الإنسان في حضرة الله . . كفّان معروقتان تمتدان نحو السماء . . وعينان تفيضان الدمع شوقاً . . وقلب يغمره النور القادم من نبع النور . . وجه بشري فيه ضراعة وخشوع ولسان يلهج اقراراً بمصدر كل الأشياء . .

من اجل هذا وقف التاريخ ليسجّل تمتمات موسىٰ في قلب الظلمات :

ـ يا مخلّص الشجر من بين رمل وطين !

يا مخلّص النار من بين الحديد والحجر !

يا مخلّص اللبن من بين فرث ودم !

يا مخلّص الولد من بين مشيمة ورحم !

يا مخلّص الروح من بين الأحشاء !

خلّصني من حبس هارون .

وعندما يغفو الجسد الآدمي ، تنطلق الروح بعيداً . . تتخلص من ثقل الأرض وتنفلت من أسار الطين . . وللروح مرابعها وعوالمها . . وكانت روح موسىٰ مستعدّة للقاء الانبياء . . قال محمد وهو يرىٰ ابنه مقهوراً :

ـ حبست مظلوماً . . يا موسىٰ .

ثم علمه كيف يحطم جدران الظلام من حوله :

ـ سأعلمك كلمات تخلصك من الحبس . .

قال موسى وروحه تعانق آخر الأنبياء :

ـ فداك أبي وأمي ما اقول ؟

شعر موسىٰ ان روحه تتشرب كلمات جدّه وهو يقول :

ـ يا سامع كل صوت !

ويا سابق الفوت !

ويا كاسي العظام لحماً وناشرها بعد الموت .

اسألك باسمائك الحسنىٰ .

وبأسمك العظيم الأعظم . . الأكبر . . المخزون . . المكنون .

الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين .

يا حليماً ذا أناة لا يقوى علىٰ أناتة أحد .

يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً.

ولا يحصىٰ عددا.

فرّج عني.

وتلقىٰ موسىٰ من جدّه كلمات فاتمهنّ.

وفي تلك الليلة هبّ هارون من نومه مرعوباً.. استوىٰ علىٰ فراشه الوثير واستند الىٰ وسائد منسوجة من حرير.. وفي تلك الليلة استيقظ رئيس الشرطة علىٰ دقّات غليظة تصفع الباب..

أطلّ رئيس الشرطة بعينين فزعتين متطلّعاً الىٰ خادم الخليفة الرهيب.. ان رؤية مسرور في منتصف الليل توقظ في المرء كل طبول الخوف:

قال مسرور وقسمات وجهه ماتزال قاسية:

ـ أجب الخليفة.

استكمل رئيس الشرطة ارتداء بدلته الرسمية علّه يستمد من هيبتها عزماً يسعفه عند لقاء هارون.

كان هارون في ذروة التحفّز ولم تنفع وسائد الحرير ولا فراشه الوثير في تبديد التوتر العصبي الذي تجسّد في ملامح وجهه وفي عينيه المشتعلتين.. كان ساهماً يحدّق في نقطة ما علىٰ أرضية الحجرة المفروشة بالسّجاد الفارسي.

ـ السلام علىٰ أمير المؤمنين!

ـ ...

شعر رئيس الشرطة أن قلبه يدق في حنجرته وان هـارون سيسمع ولا شك طبول الخوف وهي تقرع في صدره !

مرّت ساعة حسبها الرجل حولاً كـاملاً وقـد تـضاءل حـتىٰ اصبح كجرذ مذعور في حضره قط متوحش.

قال هارون بعد لأي :

ـ أتدري لم طلبتك في هذا الوقت ؟

بلع الرجل ريقه :

ـ لا والله يا أمير المؤمنين !

قال هارون وهو ينظر الىٰ حارس قرب الباب :

ـ رأيت في منامي عبداً حبشياً في يده حربه .. كان يتوعدني قائلاً : خلّ عن موسىٰ بن جعفر والّا نحرتك بهذه الحربة ..

انطلق يا عبد الله واطلقه من السجن !

شعر رئيس الشرطة بالثقة تعود الىٰ قلبه وتشيع في صدره وقد هدأت تماماً طبول الخوف ، نظر الىٰ هارون متفحصاً ربّما كان سكران ؛ قال مستوثقاً :

ـ أطلق موسىٰ بن جعفر ؟!

ـ نعم .

ـ اطلق موسىٰ بن جعفر يا أمير المؤمنين ؟!

ـ نعم .

وكرر رئيس الشرطة للمرّة الثالثة :

ـ اطلق موسىٰ ؟!

قال هارون:

ـ أجل اطلقه.. شرط ان لا يغادر بغداد أبداً..

أردف هارون، وهو يشير الىٰ رئيس شرطته بالانصراف:

ـ الآن.. وقل له يحضر مجالسي كل خميس.

ـ سمعاً وطاعة.

ومضىٰ عبد الله يشق طريقه الىٰ حيث يقبع موسىٰ بن جعفر كان الليل في هزيعه الأخير وشيئاً فشيئاً شعر رئيس الشرطة وهو يصغي الىٰ وقع خطاه أن الجرذ الصغير في داخله يكبر شيئاً فشيئاً حتىٰ غدا وحشاً كبيراً له زئير!

30

يمر دجلة وسط غابات النخيل ، فيشطر بغداد قسمين وقد انتشرت القصور على جانبي دجلة ، الذي يتلوّى في مساره كأفعى حائرة .

ودجلة يمرّ أولاً ببيوت الفقراء ، بيوت خاوية على عروشها حيث ترتفع اشجار النخيل السامقة مشرفة على حقول واسعة ، ومزارع . .

وقبل أن يعبر المرء خندق «طاهر» الذي تتدفق فيه مياه دجلة الغرينية ، وقبل أن يصل قنطرة «قطربل» تتناثر بيوت الفقراء، ما بين مقابر قريش ، وباب التبن ، بيوت خاوية على عروشها ، تحكي انشطار هذه المدينة .

حطّ الرجل الاسمر الذي جاء من أقصى الجزيرة على قدر . . حطّ رحله في بيت طيني . . بعد ان مكث في السجن بضع سنين .

ومن قنطرة «قطربل» يعبر الفلاحون الىٰ حيث تنتشر حقولهم ومزارعهم ما بين نهر «بطاطيا» ومقابر قريش المحاذية لدجلة .

امّا إذا أراد المرء أن يعبر الىٰ الجانب الآخر من دجلة حيث تنهض قصور الرشيد وجعفر المنيفة ، فيتعيّن عليه أن يسير علىٰ شواطئ دجلة الىٰ أن يصل الىٰ جسر الرصافة ، جاعلاً باب خراسان الىٰ ظهره ، وعندها يعبر الجسر الىٰ باب الطاق ؛ وعلىٰ اليسار تنهض القصور الحديثة والبيوت الانيقة وكبار التجار والملاّكين واصحاب النفوذ .

وفي شوارع وأزقة هذه المنطقة يسمع المرء انغام الموسيقىٰ الصادحة واصوات المغنّين والمغنيات تتسلل من النوافذ المفتوحة والأبواب المشرعة ؛ فاذا انتصف النهار سمع العابر صوت أذان مخنوق ، ينساب حزيناً في مدينة عابثة لعوب .

وفي كل يوم خميس كان الرجل الأسمر الذي يحمل في صدره ميراث النبوّات يقطع هذه المسافة ، ليدخل علىٰ هارون الرشيد .

لعل النصارىٰ الذين رأوه ذلك اليوم وهو راكب حماره في طريقه الىٰ الجسر قد ومضت في أذهانهم صورة المسيح عيسىٰ ابن مريم .

الجسر يزدحم بالعابرين ، وفي رقبة الجسر ، تحلّق الناس

حول قرّاد يرقص قرده ويضحك من عنده .

كان صوت القرّاد ، واضحاً تماماً وهو يخاطب قرده الذي يرتدي ثياباً مزركشة، وتتدلىٰ من عنقه قلادة فضية :

ـ اتحبّ ان تصبح نجاراً !

هزّ القرد رأسه موافقاً .

وانبعثت ضحكة مكتومة من المتفرّجين .

قال القرّاد :

ـ اتحبّ أن تكون تاجراً يا عزيزي :

هزّ القرد أيضاً رأسه موافقاً ، وبدا اكثر حماساً لهذا الاقتراح.

ـ ماذا لو اصبحت مغنّياً !

هزّ القرد رأسه بحماس واضح ، فالغناء في هذه الأيّام يجلب الجاه والثراء .. وتحسّر بعضهم وقد ومضت في ذهنه صور الموصلي وهو يرفل بالثياب الحريرية ثياب يحملها التجار من اصقاع بعيدة .

هتف القرّاد بقرده :

ـ اتحبّ أن تصبح وزيراً ؟ !

وهنا انفجر القرد مذعوراً ، وراح يطلق صوت استغاثة طالباً

النجدة من مصدر مجهول .

وانفجر الجمهور مطلقاً ضحكات يشعر السامع أن تتدفق من اعمق نقطة في القلب .

قلوب الفقراء تموج بحزن ، كما يموج البركان الخامد بحممه في الأعماق المستعرة .

ليس هناك من متنفس للغضب سوىٰ الضحك وربّما العربدة في بساتين دجلة .

خفتت الاصوات بعد اجتياز الجسر وبدت المنازل الانيقة والقصور المنيفة ساكنة غارقة في الصمت ليس هناك من صوت ، سوىٰ ما تبعثه النوافذ المفتوحة والشرفات من انغام لموسيقىٰ فاتنة.

وربّما سمع المرء وقع احذية الحرّاس ورجال الشرطة وهم يمضون لانجاز مهمّة ما أو القيام بمأمورية انيطت بهم .

قصر هارون يربض فوق مساحة واسعة ، وقد بدا صدفة عملاقة تحدق بها مختلف الاشجار ، وتحفّ بها اشكال وألوان من الورود .

وفي بوابة القصر انتصب حرّاس غلاظ في ايديهم رماح وعلىٰ عواتقهم سيوف .

رهبة المكان ، وتلك الابهة ، لا بدّ وان تقذف في قلب الزائر

قدراً مخيفاً من سطوة أهله واصحابه .

كان «أبو ابراهيم» الرجل الأسمر الذي قدم بغداد علىٰ قدر يشق طريقه في خطىٰ هادئة .

يستشف الذي يراه انه في قبال شخص يختلف تماماً ممّا يراه المرء في هذه الأطراف فالخطىٰ واثقة ليس فيها كبرياء ولا خضوع. . فيها تواضع مفعم بشعور بالعزّة ، وفيها رجولة تطفح انسانية ، العينان نافذتان ، لا ترىٰ في ابهة القصر سوىٰ خرائب ، ولا في الحرّاس سوىٰ ضحايا بشرية . . ضحايا لوحش القدرة والسيطرة .

بهو القصر يعجّ بالمنتظرين ، رجال يرتدون مختلف الازياء. . كان بعضهم ينتظر منذ عام وآخر مضت علىٰ انتظاره شهور ، وبعضهم أسابيع وقد وقف «الحاجب» كجدار صخري فى يده مفاتيح اللقاء . . لقاء هارون الرشيد . . لقاء الدنيا العريضة والمجد والثراء .

هبّ الحاجب للقاء «موسىٰ» .

أبو ابراهيم يحضر في الساعة المحدّدة لم يتخلف عن مواعيده ابداً . . انهار الجدار الصخري تماماً ، ووجد موسىٰ نفسه أمام هارون ، ليس هناك من يتحدّث عن لحظات اللقاء ، انه ولاشك مشحون . . مشحون بكل القيم المتصارعة . .

مشحون بكل رموز الصراع .

ارادة بشرية تتجلىٰ في عين هارون ، وبريق مخيف يموج في المحجرين ، كما لو انهما تطلّان علىٰ جحيم مستعرة .

وفي مواجهة هارون ، يقف موسىٰ ، بكل ملامحه التي تعكس تألقات السماء ، في عينين صافيتين غسلتها الدموع . . دموع الإنسان العاشق . . دموع من يتوق الىٰ حبيبه في الآفاق البعيدة .

في مجلس هارون بدا أبو يوسف قاضي القضاة متحفزاً قد هيأ اسلحته هكذا طلب منه الخليفة أن يقهر موسىٰ ولو بسؤال واحد يوقفه متحيّراً عاجزاً بعض العجز .

التفت هارون ، وقد ومضت في عينيه صورة الفرعون ، وتنحنح القاضي قبل أن يلقي بحباله وسؤاله . . قال أبو يوسف وهو يحدّق في وجه أسمر يتألق فيه نور عجيب :

ـ يا موسىٰ ما تقول في التظليل للمُحرم ؟

اجاب ابن النبي :

ـ لا يصحّ .

ومضت في عيني أبو يوسف أفعىٰ لها فحيح :

ـ فيضرب الخباء في الارض ويدخل البيت ؟

ـ نعم .

خيل للخيلفة وقاضيه أن الأفاعي ستلقف موسىٰ وتبتلعه ..

قال القاضي منقضاً :

ـ فما الفرق بين الموضعين ؟

وألقىٰ موسىٰ بسؤاله وعصاه :

ـ ما تقول في الطامث أتقضي الصلاة ؟

اجاب القاضي بلهجة خائفة .

ـ لا .

ـ اتقضي الصوم ؟

أجاب القاضي متخاذلاً :

ـ نعم .

قال له موسىٰ وهو يسدّد الضربة القاضية :

ـ ولمَ ؟

قال القاضي مستسلماً :

ـ هكذا جاء .

قال موسىٰ وقد لقفت كلماته اسئلة القاضي وخليفته انما فعلوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ :

ـ وهكذا جاء هذا .

سكت القاضي راح ينظر الىٰ خليفته مخذولاً .

نظر اليه هارون حانقاً، وقد غادر موسىٰ المكان فيما بدت الأسئلة حبالاً ممزقة وعصياً مهشمة قال هارون وهو يصرّ علىٰ اسنانه :

ـ ما أراك فعلت شيئاً.

اجاب قاضي القضاة، وهو يلملم ما بقي من حباله وسؤاله :

ـ رماني بحجر دامغ.

31

منازل بغداد في ذلك الغروب الحالم بدت وكأنها جوار حسان جلسن على الشاطئ ، ينظرن الى تدافع المياه ، وقد تكسرت فوقها بقايا اشعة الشمس قبل أن تغيب .

النوافذ المفتوحة والكوىٰ تبعث ضوءً واهناً لقناديل اسرجت توّاً . استعداداً لليلة طويلة فاتنة ، الرجل الأسمر يجوس خلال القصور آخذاً سمته نحو بيت يقبع ما بين مقابر قريش ودير القباب على شاطئ دجلة حيث تتناثر بيوت الفقراء هنا وهناك .

الأزقة النظيفة المرصوفة بالحجارة شهدت ذلك الغروب خطى هادئة لرجل قدم من الجزيرة على قدر .

ليس هناك من يسبر آلام موسىٰ في ذلك الزمن النحاسي ، زمن حسبت ساعاته بكرات من نحاس ، حتىٰ الفارس الذي مايزال

متربعاً فوق القبّة الخضراء يحمل رمحاً نحاسياً، يدور به في كل الجهات، لكأنه يبحث عن أفق تلمع فيه بروق الثورات.

كل شيء كان هادئاً، والنوافذ التي كانت ترسل اضواءً واهنة راحت تبعث بانغام الموسيقىٰ، وقد ظهر القمر متألقاً فوق ذرىٰ النخيل.

بغداد تبدأ لهوها الليلي، تعدّ موائدها الساهرة؛ وقد ارتدت الجواري الحسان ثياباً منسوجة من حرير مضمخة بانواع الشذىٰ والعطور.

كان الرجل الذي يحمل في صدره هموم النبوّات مايزال يجوس خلال الديار، خلال زمن نحاسي ضاعت فيه مواعظ الأنبياء.

وفيما كان الرجل الأسمر ينعطف في زقاقٍ مرصوف بالحجارة المفخورة، فتحت باب خشبية أنيقة، وظهرت جارية حسناء، وتدفقت عبر الباب اصوات الموسيقىٰ والغناء.

وضعت الجارية قمامة في مكان على مبعدة من الباب، ووقفت تتطلع الىٰ الرجل الغريب، الواثق الخطىٰ، ربما كانت تقارن بين طلعته وصور الدراويش المخزونة في ذاكرتها.

توقفت الخطىٰ عند الباب حيث تتدفق اصوات اللهو

والمجون والعربدة.

قال موسىٰ وهو يسدّد نظرة تكاد تخترق الزمن:

- يا جارية! صاحب هذه الدار حرّ أم عبد؟

شعرت الجارية أن السؤال قد باغتها تماماً، كانت تتوقع كلمات أخرىٰ طالما سمعتها، كلمة مستعطفة، أو كلمات غزل عابرة، هتفت الجارية حتىٰ لا تبدو بكماء في نظر الغريب:

- بل هو حرّ!

همس أبو ابراهيم بصوت يشوبه حزن غامض:

- صدقت، لو كان عبداً لخاف مولاه.

ومضىٰ الغريب لا يلوي علىٰ شيء، فيما وقفت الجارية تنظر مذهولة الى خطىٰ هادئة تبتعد رويداً رويداً..

كانت تتطلع الىٰ رجل نحيف تموج في سمرته تألقات نور غريب، نور يشبه ما يسطع في اعماق النفوس المطمئنة المفعمة بالسلام.

انبعث صوت من أعماق المنزل:

- أين أنت يا روحي! كؤوسي فارغة، وفي قلبي تستعر الجحيم.

دخلت الفتاة ، وقد علا وجهها وجوم .. ربما كانت مشغولة بفك رموز كلمات لم تسمعها من قبل .. كلمات نفّاذة تسبر الأعماق..

قال الرجل السكران قليلاً :

ـ ماذا دهاك .. لماذا تقفين هكذا كالمعتوهة ..

ـ لا شيء يا سيدي .. لقد مرّ الساعة رجل .. رجل غريب سألني عن صاحب هذه الدار .

ـ عنّي أنا ؟ ! ماذا قال ؟

ـ قال : صاحب هذه الدار حرّ أم عبد ؟

ـ حرّ أم عبد ؟ !!

ـ قلت بل هو حرّ .

ـ هل قال شيئاً آخر ؟

ـ قال : صدقت لو كان عبداً لخاف مولاه .

مثلما يضرب الزلزال الأرض ، فترتعش ذرّات التراب وترتجف الاشياء .

كانت الكلمات النفّاذة تضرب الأعماق ، تطيح بكل الصروح تمزّق خيوط العناكب ، تحيل الانفاق المظلمة الىٰ خرائب .

سقط الكأس من يده .. وانتفض كمحموم ، مهرولاً بـاتجاه الباب ، لحقت به فتاته تدلّه علىٰ وجهة الرجل الأسمر الذي مرّ بـها قبل لحظات ..

وشهدت ظلمة المساء رجـلاً حـافياً يـنهب الأرض بـخطاه، يبحث عن رجل أسمر يحمل في صدره هموم الأنبياء .

هتف الحافي بصوت مخنوق وقد لاح له موسىٰ :

ـ يا سيدي !

توقفت الخطى ، والتفت أبو ابراهيم الىٰ رجل حـاف يشـرق بدموعه ..

والتقىٰ الرجلان رجل اسمر ورجل حاف ، يبحث عن جـادّة الطريق ..

وبكىٰ الحافي ما شاء له أن يبكي .. شعر أن روحه تـغتسل تحت رشاش من مطر طهور .

جثا الحافي عند قدمي مـوسىٰ ، يـنشده الخـلاص الأمـل .. الطريق الىٰ ينابيع النور ، وانحنىٰ أبـو ابـراهـيم يـمسح عـن رأس العائد الىٰ الله .

لقد اكتوىٰ بنار الشيطان أمداً طويلاً ، قـال له مـوسىٰ وهـو يعظه:

ـ كفىٰ بالتجارب تأديباً ، وبممر الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكر الموت حاجزاً من الذنوب والمعاصي ، والعجب كل العجب للمحتمين من الطعام والشراب مخافة الداء إن نزل بهم ! كيف لا يحتمون من الذنوب مخافة النار اذا اشتعلت في ابدانهم .

الرجل الحافي مايزال مستغرقاً في بكاء صامت كغيمة حزينة كانت عيناه تهملان الدموع . .

الدموع . . دموع الندم والعودة والحنين ، تطفئ الحرائق المشتعلة في الأعماق لتنفتح نافذة من نور علىٰ سماء صافية ؛ ذابت في فضائها الغيوم فبدت مرصعة بالنجوم .

تساءل الحافي وكان اسمه بُشراً[43] :

ـ من تكون يا سيّدي .

قال الذي قدم من المدينة على قدر .

ـ أنا ابن محمد حبيب الله وابن اسماعيل ذبيح الله وابن ابراهيم خليل الله . . انا موسىٰ بن جعفر .

وفي تلك اللحظة عندما تحطمت آنية الخمر ، ولج «بُشر» عالم الملكوت .

32

ريح خريفية ، تهبّ من الشمال تبشر بليالي البرد القادمة والليل الطويل .

مايزال يتقلب في فراشه ، منذ منتصف الليل .

عجزت كؤوس الخمر أن تطير به على اجنحة الخيال والوهم، ولا الجواري الحسان أن تبدد في اعماقه شعوراً قاتلاً بالحقارة .

ووقف «الاصمعي» [44] عاجزاً هو الآخر من ادخال شيء من التسلية الىٰ قلبه ..

بدا الخليفة في تلك الليلة كائنا ممزّقاً نهبا للقلق والمرارة ، لقد استحال الى عبد تافه .. عبد ذليل لرغبات مجنونة لا يستطيع الفكاك منها والتحرر من قبضتها .

نهض من فراشه الوثير، ازاح وسائد الحرير.. وترك رداءه ينساب من فوق كتفيه كحيّة ملساء.

في الرواق القىٰ نظرة فارغة على اكياس متخمة بالذهب والفضة.. خراج خراسان الذي وصل صباحاً.

التفت يمينا وشمالاً لكأنما يبحث عن شيء يبدد شعوره بالمرارة.. عن أحد يبدد وحشته، لا شيء.. لا أحد.

انه يقف وحيداً.. حتىٰ زوجته زبيدة باتت تفصله عنها آلاف الأميال..

انتبه الحرّاس الىٰ شبح يمشي مترنحاًفي طريقه الىٰ بوابة القصر.. استعدّ الحرس لتقديم فروض الطاعة..

عجزت مشاعل القصر عن تبديد ظلمة الليل البهيم.. وبدا القصر في عيني الخليفة المرهق الأعصاب كائناً خرافياً..

للمرّة الألف استعاد تفاصيل الرؤيا.. رؤيا اقضّت مضجعه، سلبت من عينيه حلاوة النوم.. نشوة السلطان.. رأىٰ موسىٰ كبيراً.. كبيراً كعملاق ورأى نفسه ضئيلاً.. ضئيلاً كجرذ.. ولفرط دهشته رأىٰ موسىٰ ينقض بعصا في يده علىٰ قصره، فيحيل صروحه الىٰ أنقاض، ورأىٰ نفسه يفرّ في دروب مظلمة تطارده أشباح ضحاياه في منعطفات مخيفة موحشة.

لا «الخندريسية»[45] المعتقة، والشراب «القطربلي»[46] ولا

حتىٰ نبيذ العسل بقادرة على تهدئة أعصابه الهائجة كفرس مجنونة..

لقد بلغ ذروة اللذائذ وبات ينشد المزيد.. المزيد، ولكنه كان يعي بمرارة خواء الأعماق.. كصحراء مليئة بالملح أضحت روحه الضائعة.

دجلة يجري صامتاً.. غير آبه بما يجري حوله.. دجلة يمضي في طريقه غير مكترث بالقصور المتناثرة على ضفافه كأصداف ولآلئ.

هناك في الجانب الآخر من النهر رجل حجازي.. رجل يتدفق كنهر.. يجري كنهر.. تنثال فضائله كما تنثال مياه دجلة فتهب الخضرة والحياة للجميع.

هناك في الجانب الآخر من دجلة في الأعالي، ما بين محلة باب التبن وقطيعة زبيدة كوخ من جريد النخل، يعيش فيه رجل اسمر يوشك أن يسطع اسمه في الآفاق.. تنجذب اليه القلوب من كل مكان.. يهب السلام لمن يبحث عن السلام.

ـ الخطر يكمن هنا.

دوت صرخة رعب في اعماق هارون.. هناك من يهدد عرشه وملكه بالزوال.. هناك من يهدد دنياه بالبوار.. هناك من يبدد أحلامه وأمانيه.. ويجعل ليله طويلاً عاصفاً بالقلق.

لقد قهر كل من يقف في طريق لذائذه ، التي تزداد شرهاً يوماً بعد آخر وليلة وراء أُخرىٰ . .

الضرائب تزداد ، وتأوّهات المعذبين تصّاعد في السماء ، وتزداد هبات الخليفة للمغنّين والمغنّيات ، وتأخذ الجواري طريقها الىٰ قصور الخليفة في بغداد وخارجها . . جواري من كل الألوان ومن كل الأعراق .

رجل واحد كان يقضّ مضجعه يطارده في ليله ونهاره . . موسىٰ . .

من اجل هذا صرخ الخليفة وقد بزغت الشمس حمراء كعيني هارون :

ـ جئني بذلك الحجازي .

تساءل الحاجب :

ـ أي الحجازيين يا سيدي ؟ !

ـ موسىٰ بن جعفر .

وأردف وهو يصرَّ على اسنانه :

ـ بن محمد بن علي بن الحسين . . بن علي بن أبي طالب . .

أعرفته أم ماتزال تجهله ؟

كان الخليفة يقلّب سيفاً كثعبان صحراوي .

ـ ومن لا يعرف موسىٰ ؟!

وانحنىٰ الحاجب قبل أن يتوجه لتنفيذ مهمته في الجانب الآخر من دجلة.. هتف الرشيد بحاجبه:

ـ احضر أولاً سوطين وجلّادين.

بذل الحاجب جهداً جبّاراً لاخفاء مشاعره ولينحني مرّة أخرىٰ أمام الخليفة.. انه لا يملك غير الانحناء وتنفيذ الأوامر..

ومضىٰ الحاجب مع مفرزة من الحرّاس.. عليه أن يكون حذراً في تنفيذ مهمته فهناك من يترصّده في خفاء ربّما يكون حارساً أو غلاماً، وربما جارية أيضاً.

الطريق الىٰ محلّة باب التبن ليس طويلاً؛ لطالما ذهب الىٰ هناك.. وفي كل مرّة يخيل اليه أنه يذهب الىٰ عالم آخر.. فمن القصور الىٰ الأكواخ، ومن عليه القوم بازيائهم المزركشة التي يغلب عليها السواد، الىٰ الناس البسطاء، ومن الخيول الفارهة الىٰ حمير السّقائين.

كانت كوكبة الفرسان تشق طريقها الىٰ احياء الفقراء في الجانب الآخر من قنطرة «قطربل»:

اعترف الفضل في قرارة نفسه وهو يتأمل كوخ الجريد ان لموسىٰ سلطاناً عجيباً، وفي كلّ مرّة أراد أن يدرك مصادر قوّة هذا الرجل الحجازي كان يشعر بالعجز، وكم مرّة كان يحاول أن

يحاوره كندّ.. كحاجب للخليفة.. كشخصية مهمة في الدولة ولكنه كان يخفق لاسباب لا يعرف طبيعتها.

الفقراء والاثرياء.. البسطاء واعيان البلد ينحنون له اجلالاً وتكريماً.. ربّما يرون في ملامحه هويّة الإنسان.. هويّة أفتقدوها منذ أجيال.. ربما يرون فيه مصدراً للسلام في زمن يلفه الضباب والدخان.. في زمن الشيطان.. ربما يرون فيه قلعة للمقاومة.. مقاومة الطغيان.. يقول كلمة: لا.. كلمة ثمنها باهظ.. ربما يدفع صاحبها ما فوق رقبته ثمناً.. وربما يطوي بقية حياته في «المطبق».. سجن يشبه قبراً هائلاً.

ترجّل الحاجب وخاطب غلاماً افريقياً:

- استئذن لي علىٰ مولاك.

أجاب الغلام دونما اكتراث وربّما معرّضاً:

- لج.. فليس له حاجب، ولا بوّاب..

لم يكن في الكوخ سوىٰ موسىٰ وغلام أفريقي آخر في يده مقص يأخذ اللحم من جبين أشرق بالسجود الىٰ نور السموات.

- السلام علىٰ أبي ابراهيم.

- وعليك السلام ورحمة الله.

والتقت نظرات الرجلين.. وجد الحاجب نفسه يقول متخلصاً من عبءٍ ثقيل:

ـ أجب الرشيد .

أجاب موسىٰ بمرارة :

ـ ما للرشيد ومالي . . أما تشغله نعمته عني ؟ !

واردف وهو ينهض :

ـ لولا اني سمعت في خبر عن جدّي رسول الله ان طاعة السلطان للتقية واجبة ما جئته .

امتطىٰ موسىٰ بغلة تشبه بغال السقّائين الذين يحملون المياه الصافية من أعالي النهر .

قال الحاجب وهو يلقي نظرة علىٰ البغلة :

ـ أتلقىٰ الخليفة بهذه الدابّة التي ان طلبت عليها لم تسبق ، وان طُلبت عليها تلحق ؟ !

قال له موسىٰ وهو يحاوره :

ـ لست احتاج أن أطلب ، ولا أن أُطلب . . ولكنها دابّة تنحط عن خيلاء الخيل وترتفع عن ذلّة الحمير ، وخير الأمور أوسطها .

سكت الحاجب ، لاذ بصمت لا يعرف كنهه .

التفت الىٰ موسىٰ وقال بعد أن عبرا قنطرة قطربل :

ـ استعد للعقوبة يا أبا إبراهيم .

قال له موسىٰ وهو يرمق السماء :

ـ أليس معي من يملك الدنيا والآخرة ؟

وفي القصر دار حوار مقتضب ، قال هارون وهو يتفحص غريمه بنظرات تقطر حقداً :

ـ ما الذي قطعك عن زيارتنا ؟

قال موسىٰ وقلبه يخفق بسلام :

ـ سعة ملكك وحبّك للدنيا .

لبرهة قصيرة ومضت اسئلة في ذهن الرشيد ! لماذا يبدو موسىٰ هادئاً مطمئناً ؟ هل هناك حقاً ما يستحق التضحية بالدنيا .. الدنيا الجميلة .. جمال القصور .. الفاتنة فتنة الجواري الروميات .. وهل هناك ما يفتن القلب ويستحوذ علىٰ النفس غير لذائذ الطعام والشراب ؟ !

لماذا أبدو ضئيلاً في حضرة موسىٰ ؟ . ثم ما هذه السكينة المطلقة التي تجعله راسخاً كجبل ؟ .. ومن اين استمدّ كل هذا الحبّ الذي يهيمن على آلاف القلوب من محبّيه ؟ لبرهة ومضت كل هذه الافكار في ذهن هارون .. لم ينتبه الىٰ نفسه الّا عندما نهض موسىٰ وهو يهمس بهدوء تام :

ـ الحمد لله .

ولفترة وجيزة كانت الكلمة تضيء المكان وتهيمن علىٰ مشاعر الخليفة قبل أن يغرق مرّة أخرىٰ في هاوية تتراكم داخلها ظلمات رهيبة .

33

سـافر الرشـيد الىٰ «الرقـة» .. هـناك القـصور .. وكـؤوس لخمور وعالم من اللذة مسحور ..

هناك ، يمكنه أن يرىٰ بغداد جيداً . سوف يلعب الشـطرنج ، يقضي علىٰ خصومه واحداً .. واحداً .. من اجل هذا أمـر بـاعتقال موسىٰ .. أودعه عند الفضل البرمكي سجيناً ومضىٰ الىٰ «الرقة». وبغداد تدور فيها كلاب سرّية تشمّ كـل شـيء مـن بـعيد .. كلاب مسعورة لا تعرف غير النهش .. تلتذ بتحطيم العظام الآدمية .

بغداد خائفة .. انهكتها الضرائب .. أوهنها الخوف وقد بلغت القلوب الحناجر .. والرجل الذي يتدفق سلاماً معتقل لدىٰ الفضل ، السلام مغيّب .. بغداد تبحث عن السلام ..

من فوق سطح قصر الفـضل بـدت بـغداد فـي ذلك الأصـيل الخريفي ساكنة .

منظر هادئ ولوحة ثابتة .. كل شـيء بـدا سـاكـناً مـا خـلا

تألقات دجلة بمياهه الغرينية وهي تتدافع ، لتمنح القرىٰ في الجنوب الخصب للمواسم القادمة .

سرب مهاجر من الطيور يعبر السماء يبحث عن مكان دافئ.. امّا اشجار النخيل المحدق بالنهر فقد بدت كرموش حورية شهيدة .

كان الفضل يحدّق في لوحة رسمها الأصيل .. لوحة منسجمة تماماً .. لوحة يبدو فيها الوجود وكأنه يدور بهدوء حول محور ما .

محور يكمن في جوهر الأشياء ذاتها ..

ربما وحده الإنسان هو الذي يعكّر صفو العالم المتناغم .. ولكنه عندما يمعن النظر في هذا الرجل السجين .. الذي يرتدي مدرعة صوف .. يدرك ان الإنسان هو الآخر يمكنه ولوج ملكوت الوجود ..

الإنسان جزء من الكون الفسيح اللامتناهي .. لشدّ ما اثار انتباهه هذا الحجازي هذا القادم من رمال الجزيرة .. لقد رأىٰ كثيراً من الصوفيين .. ورأىٰ كثيراً من حكماء فارس ، ورأىٰ رهبان النصارىٰ .. كانوا حقاً يعيشون حالة من الصفاء ، ولكنه كان يشعر بغربتهم عن العالم ، لكأنهم في واد من الخيال والوهم ..

أمّا موسىٰ فيختلف كثيراً عن أولئك انه يبدو متجرداً تغمره

سكينة مطلقة، يحيط به بحر زاخر بالسلام.. ولكن المرء يمكنه أن يلحظ في أعماقه حركة طاهرة نقية.. شيء ما يتشابك في حركة فاعلة.. قوّه ما علىٰ استعداد لخوض الحرب.. تضطرم ثورة ومقاومة.. ولعلّ هذا ما يقلق هارون.. ما يجعله يشعر بالفزع.. الذعر.. الأرق.

انتبه الفضل الىٰ نفسه.. كما يخرج المرء نفسه من اعماق بحيرة صافية انتشل البرمكي نفسه من تأملاتٍ كان غارقاً فيها.

لقد جاء صديقه عبد الله.. انه يثق به كما يثق بنفسه.. يعرف أن «الشيعي» يقدّس أسرار الإنسان.. يمجّ الخيانة كما يمج المرء الحنظل في أعماقه.

قبس من إنسان.. نور من هذه الروح المسالمة.. التي ماتزال غارقة في سجدة طويلة حتىٰ الغروب.

قاد الفضل صديقه الىٰ جدار في السطح يشرف علىٰ باحة القصر.

قال الفضل لضيفه وهو يحاوره:

ـ انظر ماذا ترىٰ؟

ـ لا شيء.

ـ تأمل جيداً أرجع البصر مرّة أخرىٰ.

ـ تعني ذلك الثوب المطروح؟!

ـ ارجع البصر كرّتين .. وانظر !

ـ أرىٰ رجلاً ساجداً.

ـ هل تعرفه يا عبد الله ؟

ـ لا.

ـ هذا مولاك.

ـ مولاي ؟!.. من يكون مولاي هذا ؟

ـ تتجاهل عليّ يا عبد الله .. انني أعرفك جيداً.

ـ انا لا أتجاهل ولكني لا أعرفه !

ـ هذا موسىٰ بن جعفر.

شعر عبد الله بقلبه يخشع .. واجتاحت الفضل موجة من الاجلال استحوذت علىٰ وجوده .. فلا شيء في ذهنه سوىٰ موسىٰ.. العبد الصالح .. راح يتحدث ذاهلاً :

ـ منذ اسابيع وهو رهين عندي .. طالما تفقدته بنفسي ليلاً ونهاراً فلم أره إلّا ساجداً ..

يصلي الفجر فيعقب بعد صلاته حتىٰ مطلع الشمس .. ثم يهوي ساجداً لله حتىٰ الزوال ، وقد وكّل غلاماً يترصّد له وقت الزوال ، فاذا هتف الغلام : ان الشمس قد زالت وثب يصلّي .. من غير أن يجدّد وضوءً ، فاعرف انه لم ينم في سجوده ولا أغفىٰ .. ويستمر في صلاته حتى العصر .. فاذا صلّىٰ العصر سجد سجدة

فلايزال غارقاً فيها الىٰ أن تغيب الشمس.

فاذا غابت وثب من سجوده فصلّىٰ المغرب من غير أن يجدّد وضوءً، ولا يزال في صلاته حتىٰ يصلّي العتمة.

فاذا صلّىٰ أفطر علىٰ شواء، عندها ينهض ليجدّد وضوءه ثم يسجد طويلاً، ثم يرفع رأسه فيغفو اغفاءة خفيفة ثم ينهض فيجدد الوضوء فيقيم الصلاة فلايزال يصلّي في جوف الليل حتىٰ مطلع الفجر.

فلست أدري متىٰ يقول الغلام؛ انّ الفجر قد طلع؟ إذا به يثب لصلاة الفجر.. فهذا دأبه منذ حُوّل اليّ.

قال عبد الله وعيناه تمتلآن دموعاً كسماء مثقلة بالمطر:

ـ اتّق الله يا فضل ولا تستجب لداعي الهوىٰ.. فتزول نعمتك.. انك تعلم انه لم يفعل أحدٌ بأحدٍ سوءً الّا زالت نعمته.

ـ أجاب الفضل وقلبه يستشعر هول الجريمة:

ـ ارسل اليّ الرشيد غير مرّة يأمرني بقتله، فلم أجبه واعلمته اني لن أفعل ذلك حتىٰ لو مزّقني مسرور بالسيف.

غرقت الشمس بين سعفات النخيل، بدت الذرىٰ متوقدة بحمرة تشبه جراح الأنبياء.. وشيئاً فشيئاً كان المساء ينثر رماده في حنايا الكون.. وفي تلك اللحظات وقد عادت الطيور الىٰ

أوكارها، وظهرت في الأفق الغربي نجمتان ، نهض الرجل الساجد ليصلّي ليندمج مع أسرار العالم ويذوب في لجّة الوجـود ، وهـبط الفضل مع ضيفه درجات سـلم مـرمري ، وقـد امـتلأت نـفساهما جلالاً للأنسان عندما يسجد لله وحده .

34

نسمات باردة ، لاذعة ، تدفع بالمرء الىٰ التماس الدفء، الليل يلفّ بغداد يغمرها بالغموض والاسرار ، وفي الوقت الذي تنطفئ أو تخبو الفوانيس في أكواخ المدينة وبيوتها الطينية ، تتوهج القناديل في القصور وتبدأ المدينة المترفة سهرتها ، لهوها حتى الصباح .

وفي ليالي الشتاء الطويلة ينصرف الاثرياء وعلية القوم الىٰ امضاء الليل في مجالس اللهو أو في أحضان الجواري ، وهكذا فعل الُفضل البرمكي كعادته .

ولج غرفة واسعة تطلّ علىٰ حديقة غنّاء .. حديقة لم يغيّر الشتاء من بهجتها الّا قليلاً ..

الصمت يهيمن في الغرفة ، والفضل يكرع من كؤوس اللذة

متعاً لا نهاية لها.

كانت ريح الشتاء لا تكفّ عن الولولة وهي تجوس خلال النخيل.

فجأة سمع الفضل صوتاً غريباً.. صوت يشبه انصفاق باب المقصورة.

أرهف سمعه ونظر الىٰ فتاته.. احساس بالخطر قفز في أعماقه.. شعرت الفتاة بما يموج في قلب رجلها من ذعر قالت مطمئنة:

ـ لعل هذا من فعل الرياح..

حاول أن يستريح لهذا التفسير.. ولكن باب الغرفة ينفتح بعنف ويظهر «مسرور» كقدر صارم..

وجه قاس جامد الملاح وسيف عريض يشبه سكينة عملاقة.. وعينان تشتعلان قسوة..

شعر الفضل أن قلبه يقفز الىٰ الىٰ حنجرته.. كطبل مجنون.. كانت دقات القلب تدوّي في الأعماق المنهارة.. لقد دنت ساعته ولا شك.

ـ اين موسىٰ ؟

اجتاحته موجة عارمة من الارتباك والفوضىٰ لا يدري ماذا

يفعل ؟

بلع ريقه ونزل من سريره الوثير ، وبدا الىٰ جانب مسرور كائناً ضئيلاً جداً ؛ كجرذ في براثن قط وحشي .

ولأول مرّة وجد رجليه تخوناه فيسقط . .

وجه مسرور جامد لا يتحرك تقدمت الفتاة وهمست في أذن سيّدها :

ـ ثق بالله ! !

تماسك الفضل . . نزل درجات سلّم مرمري وكان العملاق يتبعه كجنّي . . في آخر القصر توجد حجرة . . هناك يقبع موسىٰ بن جعفر . . دخل العملاق . .

كان موسىٰ غارقاً في الصلاة غارقاً في عوالم مفعمة بكلمات السماء . .

شعر الفضل انه يتأر من العملاق . . ليس في هذه الحجرة من يكترث له . .

آه ما أقواك يا موسىٰ . . من أين لك كل هذا العزم . ؟ من أين لك كل هذه القوّة . . ؟ ! حتىٰ مسرور بوجهه الجامد . . القاسي تتغير ملامحه في حضرتك .

اجال العملاق بصره النافذ في الحجرة . . وكانت ذاكرته

تسجل ملاحظاته؛ واسعة.. نظيفة.. سجّادة انيقة.. والسجين في حال جيدة.. ينعم ولا شك بخدمة طيبة.. ليست في قدميه ولا يديه قيود ولا حديد.

غادر العملاق الحجرة بصمت كما دخلها بصمت.. وأثار صمته الهلع في قلب الفضل..

ليس هناك ما هو أرعب من صمت مسرور.. قدر غامض ومصير مجهول..

غادر العملاق المخيف القصر.. وسمعت رغم دوّي رياح الشتاء سنابك حصان يبتعد..

مسرور يشق طريقه في ظلمة ليل طويل الىٰ قصر منيف لعباسي يمقت البرامكة..

يمقت فيهم نفوذهم.. استحواذهم على مقدّرات الخلافة.. وفي صمت رهيب سلّم مسرور الرجل العباسي رسالة من الرشيد.. وانطلق العملاق الىٰ مدير شرطة بغداد السندي بن شاهك.. رسالة أخرىٰ من الرشيد وفيها أن يمتثل لأوامر «العباسي».. وهكذا تمّ كل شيء في الظلام..

هبّت بغداد مذعورة علىٰ دوّي الدوريات.

العشرات من رجال الشرطة يتدفقون صوب الأماكن الحساسة في المدينة.. ومفارز خاصّة تقتحم قصر الفضل..

تسوقه مخفوراً مذعوراً الىٰ قصر «العباسي» . . لا أحد يعرف ما حصل في تلك الليلة الطويلة .

جُرّد الفضل من ثيابه وانهالت عليه سياط الجلاّدين . . مئة سوط جعلت منه كياناً ممزقاً . . متهافتاً . . مسحوقاً . . لم تبق في اعماقه . . ولا حتىٰ أمام الناس ذرّة من هيبته السابقة كوزير ولا حاكم عام لخراسان ، ولا كقائد لنصف مليون جندي فارسي . . لقد غدا صفراً . . ميتاً .

وأطلق سراحه فوراً . . ولكن بعد أن تحول الى عبد ذليل . . عبد خسر حرّيته ونفسه . .

خرج الفضل من قصر العباسي كياناً لا قيمة له . . خرج مترنحاً . . راح يسلّم علىٰ الناس يميناً وشمالاً . . نظر بعضهم شامتاً وآخرون نظروا اليه بشيء من الشفقة .

يالبؤس الملوك اذا كانت نهايتهم هكذا !

وفي مراسم خاصّة تسلّم «السندي» السجين الصامد من قصر الفضل ، لينقل سرّاً الىٰ سجن مجهول . . سجن تحت الأرض حيث يمتد الليل الىٰ ما لانهاية . .

كان السندي يشرف بشكل غليظ علىٰ مراسم ايداعه السجن الجديد . . طامورة تحت الأرض تشبه قبراً هائلاً . . قيّد سجّان قاس سجينه بأرطال الحديد . . وكان السندي في كل مرّة

يأمر بزيادة القيود.. حتىٰ وصلت الثلاثين رطلاً..

كان موسىٰ ينظر بشيء من الرحمة الىٰ سجّانيه.. كان وجهه الأزهر يتألق حزناً سماوياً في ضوء المشاعل.

بدا السندي غليظاً.. منحطاً في هاوية من الحقد.. وثنياً تعيساً.. من غير مناسبة شتم السندي عليّاً.. علياً الذي أراد له الطاغوت أن يموت.. ولكن.. ولأول مرّة بدا وجه موسىٰ تكسوه غمامة من حزن عميق..

بدت عيناه غيمتان مشحونتان بالمطر.. وعندما غادر مدير الشرطة الطامورة وغادرت المشاعل وغمرت الظلمة الرهيبة المكان.. شهق السجين بعبرته وفاء لذكرىٰ شهيد المحراب والإنسان.

35

مضت الأيام في قطار الزمن المسافر.. مضت سريعة كأنها تسّاقط في هاوية مظلمة.. ليس هناك من يعرف أين يذهب الزمن.. أين تمضي الأيام.. حلاوتها ومرارتها تمضي، لتخلّف في الذاكرة مشاهد غائمة.. ضبابية سرعان ما تندثر تحت ركام السنين وغبار القرون..

البشر يحمل عبُ الأيام، ينوء بثقل الزمن، يشتعل الرأس شيباً وتنفتح براعم الاجنّة وتتجدد الحياة كنهر دافق يمضي في طريقه لا يلوي علىٰ شيء.

موسىٰ قابع في سرداب مظلم.. طامورة تحت الأرض، وهارون يمرح بين القصور، يتقلب في لذائذه.. كؤوس مترعة بالخمره وجوار حسان.. لم يطمثهن أنس قبله ولا جان..

موسىٰ ينوء بثقل الحديد .. ويعاني القيود .. لم يبق أحد في بغداد لم يسمع بقصّة السجين ..

رجل اسمر ذرّف علىٰ الخمسين في جبينه الوضيء تطوف النبوّات .

منذ أن انتقل السجين الىٰ دار السندي بن شاهك والمؤمنون يؤمّون المسجد الملاصق للدار حيث توجد الطامورة المظلمة .. هناك في تلك الأعماق تعتقل الشمس !!

جلس علي بن سويد[47] .. الرجل الذي ترك قريته بين مكّة والمدينة وجاء يبحث عن الشمس .. يبحث عن الدفء والنور .

جلس في المسجد يحدّق في الجدار الصخري الذي يفصل الطامورة عن المحراب .

كان الوقت أصيلاً .. علي مايزال وحده عندما دخل ابن السكّيت[48] النحوي يرافقه رجل آخر .. جلساً الىٰ اسطوانة قريبة من المحراب ، كان يبدو عليهما أنهما يتحدّثان قبل ولوج المسجد .. قال ابن السكّيت بلهجة فيها أسف :

ـ والله لقد ذهب سيبويه مظلوماً .

قال صاحبه مؤيداً :

ـ الجميع يعرف ذلك .

ـ راح ضحية دسيسة .

ـ علىٰ النحو بعده العفا . . لقد غلب الكسائي «سيبويه» بقوّة السلطان «الأمين» يحبّ الكسائي . . لأنه استاذه . . والفضل بن الربيع يحبّ الأمين لغاية في نفسه . . والأعرابي يحبّ المال . . والكسائي يحبّ الجاه والمجد . .

ـ يالكمد سيبويه وحظه العاثر . . لا يعرف من بغداد شيئاً . . خيل اليه أن العلم وحده يرفع من شأن الإنسان . . غفل عن الدسائس والضمائر التي تباع وتشرىٰ بدراهم معدودة . .

ـ سمعت أن الاعرابي لم يطاوعه لسانه أن يقول فاذا هو ايّاها . . رغم محاولته ذلك . .

ـ ولكنّا ننطقها بسهولة :

ـ الاعرابي نشأ في البوادي . .

ـ اذا سارت الأمور علىٰ هذا المنوال . . فسيلحن الأعراب أيضاً .

كان علي بن سويد يصغي بمرارة للحوار ، قال لهما دون مقدّمة :

ـ يا هؤلاء أنتم الىٰ إقامة دينكم احوج منكم الىٰ إقامة ألسنتكم . . اين تذهبون . . وأين يُذهب بكم ؟ . هل تعرفون طريقكم؟

. أم تسيرون علىٰ غير هدىً ؟ .

ألكم امام فيرشدكم ؟ . . أم تراكم في مرعىً بلا راع واللّه ليس بينكم وبين امام العصر غير هذا الجدار . . كان علي يشير الىٰ جدار صخري حيث يوجد المحراب تساءل ابن السكّيت :

ـ لعلك تعني هذا المحبوس .

وقال صاحبه :

ـ موسىٰ بن جفعر ؟ !

اجاب علي :

ـ اجل . . لقد كنت عنده بالأمس . . لم أعرف طريقي اليه وظننت أن السندي قد دبّر لي حيلة فأخذ أموالي وألقاني في البئر.. حتىٰ ناداني موسىٰ أن اقترب . . فاذا هو مثقل بارطال الحديد . . يا ويل الأمّة تسوّد فجّارها وتسجن أعلامها!

تلفّت الرجلان ذعراً وقال الرجل الذي يرافق السكّيت :

ـ اذهب واستر علىٰ نفسك . . إذهب يا هذا لا نبتلي بسببك .

ـ واللّه لا يفعلون ذلك ابداً ، واللّه ما قلت لكم الذي قلت الّا بأمره وانه ليرانا ، ويسمع كلامنا ، ولو شاء أن يكون ثالثنا لفعل . .

نظر ابن السكّيت الىٰ علي نظرات فيها شكّ وريبة .

فجأة ظهر من باب المسجد رجل مهيب شيخ وقور أدرك ابن السكّيت للوهلة الأولىٰ أنه موسىٰ .. قال موسىٰ :

ـ ذلك الرجل الذي حدّثكم عني صاحبي ..

وفي لحظة دهمت الشرطة المسجد وظهر السندي بن شاهك عصبياً يكاد يتميّز من الغيظ ، صاح السندي :

ـ يا ويحك كم تخرج بسحرك من وراء الابواب والأغلاق؟ فلو كنت هربت كان احبّ الي من وقوفك هاهنا .. أتريد يا موسىٰ أن يقتلني الخليفة ؟

أحتوشت الشرطة موسىٰ .. ليعود الىٰ سجنه . وأقفر المسجد .. كمشهد بدأ وانتهىٰ .. بدأ فجأة وانتهىٰ فجأة ..

تقدّم ابن السكّيت الىٰ علي كان مايزال مبهوراً بما رأىٰ .

قال :

ـ اخبرني يا هذا عن علمه في غير الحلال والحرام من أين له؟

قال علي :

ـ من الباب الذي علمه رسول الله علي بن أبي طالب ..

قال ابن السكّيت :

ـ اتعني انه يعلم الغيب .

ـ من قال ذلك ؟ ! لقد سألته عن علمه فقال لي : هو على ثلاثة وجوه .. ماض وغابر وحادث ، فامّا الماضي فمفسّر ، وامّا الغابر فمزبور ، وامّا الحادث ، فقذف في القلوب ونقر في الاسماع وهو افضل علمنا .. ولا نبي بعد نبينا[49] .

ـ أيوحىٰ اليه ؟ !

ـ ليست بوحي نبوّة ..

ـ لا أفهم ماذا تقول .. وحي وليس بوحي ؟ !

قال علي :

ـ هل كانت مريم نبية ، وهل كانت أم موسىٰ نبية وهل كان آصف بن برخيا نبيّاً ؟

سكت ابن السكّيت .. أدرك أن لأهل هذا البيت شأن .

قال وقد توهّجت في أعماقه رغبة للقاء موسىٰ :

ـ أدخلني عليه .

ـ ومن تظنني أكون ؟ . لقد دفعت مالاً كبيراً للسندي حتىٰ أدخلني .

ـ وأنا أيضاً أدفع مالاً .

36

انها بداية النهاية .. نهايه مجد البرامكة .. انّهم الآن في ذروة المجد والنفوذ ولكن هناك ما يجري في الخفاء .. هناك في قلب الظلمات دسائس ومؤامرات .. تمتم يحيىٰ بن خالد :

ـ كم اخشىٰ الفضل بن الربيع .. انه يطمح الىٰ الوزارة .

ردّ جعفر بضيق :

ـ كل هذا من تقصير الفضل .. لا أدري ماذا دهاه .. ظنّه قد مال الىٰ موسىٰ بن جعفر ..

قال يحيىٰ وعيناه تبرقان :

ـ كل ما يهمّني أن اتدارك الأمر .

لقد جُلد الفضل أمام الملأ وهذه اهانة كبرىٰ لنا جميعاً لقد بتّ اخشىٰ الرشيد كثيراً لم يعد كما مضىٰ .. يخلو مع حاجبه كثيراً ..

وزبيدة فيما يبدو تشجع زوجها أكثر فأكثر.

ابن الربيع قاب قوسين أو أدنىٰ من الوزارة.. انظر يا جعفر لقد عُدت وزيراً بلا وزارة..

هتف بمرارة:

ـ كلّا.. كلّا لن اسمح..

قال جعفر:

ـ كان بمقدورنا أن نفعل شيئاً بالأمس لقد كنّا أقوياء وكان هناك من يتعاون معنا من أبناء علي.

قال الأب بحسرة:

ـ لقد فات الأوان يا جعفر.. لم يبق لنا إلّا طريق واحد.

ـ ماذا تعني يا أبي؟

ـ أن نعبر علىٰ جثة موسىٰ أو نهزمه..

الرشيد يتوجس خيفة منه.. لا ينام ليله.. موسىٰ يهدّد عرشه وسلطانه..

ـ ماذا تنوي أن تفعل..

ـسأذهب الىٰ الرقّة فوراً وأتحدّث مع الرشيد في الأمر لا مفرّ من ذلك.

البرامكة في خطر.. يحيىٰ بن خالد يطوي المسافات من

بغداد الىٰ الرقة . . يسابق الزمن . .

وفي الرقة جلس الرشيد أمام الجماهير . . امّة تشبه القطيع في كل شيء . . مسخها الخوف . . لا تعرف شيئاً غير ترديد كلمات السلطان . .

ببغاوات خائفة مذعورة ساذجة فقيرة جاهلة . . الناس صفوف . . تنظر الىٰ الخليفة كما تنظر الىٰ وثن . . تعتقد ان الخليفة اذا قتل اختلّ نظام الكون ربّما تنطفئ الشمس أو تحتجب . . ربما ينقطع المطر وتجف الأرض . . اصطفت الجماهير كمومياءات . .

أصحاب الحناجر القوّية والطوال احتلّوا الصفوف الأولىٰ .

نثر الجلاوزة دنانير ذهبية فوق الرؤوس اصبحت «الأمّة» جاهزة للاصغاء . . الخليفة يرمق القطيع باستعلاء هتف بهم :

ـ ايها الناس ان الفضل بن يحيىٰ قد عصاني ، وخالف طاعتي، ورأيت أن العنه ، فالعنوه !

هدرت الأصوات باللعن وارتجّت الأرض . . اللعنات تلاحق البرامكة لأن الخليفة غاضب .

وصل يحيىٰ وكانت أمطار اللعنة تملأ الفضاء . . اسرع الىٰ حيث جلس الرشيد . . دخل من الباب الخلفي المؤدي الىٰ المنصّة وهمس :

ـ يا أمير المؤمنين .

ارتاع الرشيد للوهلة الأولىٰ .. ربما كانت مؤامرة .. منذ مدّة وهو يتوجس خيفة من البرامكة .. اشتعلت في ذهنه ذكرىٰ اخيه ليلة قُتل .. ربما جاء دوره .. ربما كانوا يتهامسون لقتله ..

استأنف خالد :

ـ ان الفضل شابّ لا يعرف ما تريد .. أنا أكفيك .. اجتاحت وجه الرشيد البهجة .. سوف ينتهي كل شيء .. سيتخلص من موسىٰ .. يحيىٰ يعرف كيف يتصرف ..

قال يحيىٰ :

ـ يا أمير المؤمنين قد غضضت من الفضل بلعنك ايّاه ، فشرّفه بازالة ذلك ..

التفت الرشيد صوب الجماهير .. كانت ماتزال تصبّ لعناتها. هتف الرشيد وقد انطلقت اسارير وجهه :

ـ ايها الناس : ان الفضل قد عصاني في شيء فلعنته ، وقد تاب وأناب الىٰ طاعتي فتولّوه[50] .

الببغاوات تضجّ بالهتاف :

ـ يا أمير المؤمنين ! نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت وقد توليناه!

انتهت الحفلة ومضت الجماهير بعد أن أدّت ما عليها ، واقفر

المكـــان الاّ مـن الرشـيد ويـحيىٰ وبـعض الـحـرّاس الذيـن وقـفوا كالتماثيل .. همس الخليفة مستكشفاً خطط البرمكي :

- اما ترىٰ ما نحن فيه من المصائب ، الا تدبر في أمر موسىٰ تدبيراً تريحنا منه .

قال يحيىٰ وعيناه تبرقان :

- رأيي أن تمنّ عليه وتطلق سراحة .. بعد أن يعتذر اليك فإن أقرّ بالاساءة اصبح في قبضتك ، فتستطيع ان تحبسه إن شئت أو تقتله .

تمتم الرشيد باعجاب :

- اين كنت عن هذا الرأي !!

وأردف وقد وجد نفسه متحمساً :

- انطلق اليه ، واطلق عنه الحديد وابلغه عني السلام وقل له : يقول لك ابن عمك ، انه قد اقسم الاّ يطلقك حتى تعترف لي بالاساءة وتسألني العفو عما سلف ، وليس عليك في اقرارك عار ..

استدرك الرشيد كمن يفيق من احلامه واوهامه :

- فإن لم يفعل ذلك ؟!

قال يحيىٰ :

- عندها أرىٰ فيه أمري .. لن نمهله اكثر من هذا .. سيموت

ميتة طبيعية ..

سكت يحيىٰ قليلاً ووجد نفسه يقول :

ـ ألم يمت أخوك حتف أنفه ؟

ظل الرشيد حائراً ماذا يعني يحيىٰ في كلامه هل هو يـهدّده أم يطمئنه باغتيال موسىٰ ؟!

تبادل الرجلان نظرات مستكشفة :

قال يحيىٰ :

ـ اننا لم نجرّب معه جميع الاسلحة ..

انتبه الرشيد لكأنه يستيقظ من غفلة قال في نفسه : اجل انني لم اجرّب معه سوىٰ السجن والجوع .

قال الرشيد وهو ينهض فينهض وراءه يحيىٰ :

ـ اذهب الىٰ بغداد .. فان استجاب لك موسىٰ فهو ما نبغي والّا فانتظرني ريثما أعود ونرىٰ فيه رأينا .

37

ولج يحيىٰ الطامورة . . ارتدىٰ وجهه ثـوب الثـعلب . . وبـدا وجهه في ضوء المشاعل جمرةً مـتوهـجة . . عـينان تـحدّقان فـي الفراغ . . اشار الىٰ الحرس بالانصراف تركوه وحيداً مع موسىٰ . . قال متصنّعاً النصحيحة :

ـ يا أبا ابراهيم اتقضي عمرك في هـذا المكـان . . ألا تـرحـم نفسك وأهلك ؟!

اكتفىٰ الامام بان رمقه باشفاق ، فاردف يحيىٰ قائلاً :

ـ لقد أرسلني الخليفة . . لا تنـس أنه ابن عمك . . وقد أقسم الّا يخلي سبيلك حتىٰ تقرّ له بالاساءة . . أفي هذا عار . . لا يا أبا ابراهيم لا . . افعل ما يخرجه عن يمينه لتخرج من السجن !

ـ السجن احبّ اليّ مما يدعونني اليه . . قـل لهـارون انـه لن

ينقضي عني يوم من البلاء.. حتىٰ ينقضي عنك يوم من الرخاء.. ثم نفنىٰ جميعاً الىٰ يوم ليس له انقضاء، وهنالك يخسر المبطلون..، وستعلم غداً اذا جاثيتك بين يدي الله من الظالم والمعتدي.

سرت رجفة في جسد الرجل البرمكي.. خيّل اليه انها بسبب رطوبة المكان.. نهض.. وهتف بالحرس:

ـ فكّوا قيوده..

سمع صليل أجراس الحديد.. ثلاثون رطلاً أو تزيد تلتف حول قدمي الإمام ويديه.. انهكت جسده أمّا روحه فكانت تتوهج تزداد سطوعاً.. فالرجل علىٰ وشك الرحيل.

غادر يحيىٰ المكان وفي نفسه أمل أن يقهر موسىٰ باسلوب آخر خيل اليه أنه سمع كلمات موسىٰ وهو يقول:

ـ مساكين آل برمك! لا يعلمون ما يجري عليهم[51].

اخذته الرجفة فاسرع الىٰ خارج الطامورة.. شعر بدوار شديد في رأسه لكأن آلاف الأفكار تتراكض في داخله كأفراس مجنونة.

رعب يتفجر في اعماقه يحيله الىٰ انسان خائر لا حول له ولا قوّة.. هناك اشياء لا يفهمها.. لقد أقيل الفضل من الوزارة.. ثم حُلّ الجيش الخراساني، جفعر يرتقي الوزارة ولكنه يبقىٰ في معزل

عن الحلّ والعقد..

الفضل يجرّد من ثيابه فتنهال عليه السياط بأمر من محمد ابن العباس.. ثم يموت العباس فجأة مسموماً.. ترىٰ ماذا يحدث في الظلام؟.

يحيىٰ ذاهل يقف مشدوهاً أمام هارون لم يكن يتصوّر ان هذا الشاب الذي صنعه علىٰ يديه يتحول الىٰ لغز.. يتحول الىٰ مصاص للدماء لا يرتوي.. يأكل من لحوم ابناء عمه وحتىٰ من اخوته وعمومته..

حتىٰ ابنه أحمد[52] لم يسلم من طاحونة الموت ترك دنيا ابيه ومضىٰ يتكسب ويعمل فلا يأكل الّا من كدّ يده لا أحد يدري ماذا يجري في هذه المدينة اللعوب..

الناس جميعاً نيام.. وحده هارون يحيي الليل يلعب الشطرنج فتتساقط الرؤوس الآدمية..

اصبح يخاف من الرطب لكثرة ما لقي الضحايا من المصير الغامض المجهول.

انتبه يحيىٰ بن خالد الىٰ نفسه بعد ان سقط ظل الرشيد بحلته السوداء المخيفة.. امتلأت نفسه رعباً لقد بات يخشىٰ هذا الرجل.. هتف الرشيد وهو يتصنع الإبتسام:

- ماذا فعلت يا أبا علي؟!

ـ ماذا بمقدوري أن أفعل . . موسىٰ يقاوم الغربة والجوع والظلام . . يقاوم الحديد والقيود . .

ـ يبدو انك اخففت . .

ـ موسىٰ رجل عجيب . . فيه شيء لا اكاد أفهمه . . يتحدث عن اشياء لا نراها.. بل لا نتوقعها . . لقد سمعت من السجانين اشياء لا تصدّق . . حتىٰ أخت السندي اصبحت عابدة . .

تعمد الرشيد أن يطلق ضحكة عالية :

ـ لقد سحرك موسىٰ . . موسىٰ يقول اشياء كثيرة . . وربّما سيدّعي النبوّة بعد أيام[53] . .

اكتسىٰ وجه هارون الجدّ وبدا مخيفاً . . كانت عيناه تبرقان بشيء مخيف . . أحنى يحيىٰ رأسه مستأذناً وأدار وجهه منصرفاً.. فيما ظلّ هارون يحرق قفاه بنظرات مشتعلة قال وهو يصرّ علىٰ أسنانه بغيظ :

ـ سيأتي دوركم ايها البرامكة . . سأجعل منكم احدوثة لأهل بغداد . . انا حفيد المنصور[54] .

لا أحد يدري ماذا يجري في الظلام . . ربما تعرف الجواري الحسان اللآئي اهداهن الخليفة الىٰ علية القوم ماذا يحصل . . من يتوهج اسمه ومن ينطفئ نجمه .

هتف الرشيد باسم حاجبه، وذهبا معاً الىٰ شرفة في القصر.. ربما كانا يحوكان مؤامرة جديدة.. لا أحد يدري..

من زاوية في القصر ظهر مسرور.. كان ينظر الىٰ الخليفة كما ينظر الوثني الىٰ صنم بشري، قال الرشيد:

ـ هل أحضرتَ الجارية.

ـ نعم يا مولاي.. خلف الستر تنتظر.

سار الرشيد باتجاه ستائر حريرية مذهبة.. في الرواق كانت اكداس من الأكياس المليئة بالذهب والفضة تتكئ الىٰ الجدار المرمري الصقيل..

أحنت الجارية جذعها الممشوق للخليفة..

اشتعلت في عينيه شهوة حمراء.. حمراء بلون الدماء.. ربما كان يفكر انها آخر الاسلحة لقهر موسىٰ.. ليس هناك من لا يركع لهذا الجمال.. لهذه الفتنة.. ليس هناك من لا ينحني لهذا السحر.. قال لها الخليفة:

ـ أنظري يا سحر.. انظري الىٰ هذا الذهب سأمنحك ما تشائين إذا جئتيني بقلبه.. إذا حطمتي ارادته..

ابتسمت سحر لكأنها تريد أن تقول:

ـ بعزّة هارون سأغلبه! سأفتنه عن دينه..

ومضت «سحر» يتقدمها «مسرور» .. مضت تتضوع شذى وسحراً .. تملأ القلوب فتنة .. وازدادت فتنة عندما اصبحت تحارب من أجل مجد السلطان المهدد بالخطر .. ستصبح سيّدة القصر الأثير بعد الانتصار .

38

انهمك الحرّاس في ادخال قدر من الرفاه في الطامورة فالسيدة الحسناء في طريقها الىٰ السجن.. تبادل بعضهم نظرات لها معنىٰ.. الخليفة يقاتل خصمه بكل الاسلحة..

وصلت الفتاة دار السندي بن شاهك.. وعندما ترجّلت عن بغلتها.. وتألقت في شمس الضحىٰ حسبها البعض حورية هبطت من جنّتها الىٰ الأرض..

ليس هناك من يصمد أمام هذه الفتنة الطاغية.. القوام الممشوق.. والوجه الباسم المضيُ.. والعينان المكحولتان.. والفم اللوزي.

وقف الحرس مشدوهين.. القوا اسلحتهم واستسلموا للنظرات القاتلة.. بين بوابة قصر السندي والسجن رواق ملأته

الحسناء شذىٰ وعبيراً وسحراً .. مسرور يتقدم كل هذا الجمال الطاغي .. وبدا في تلك اللحظات جنيّاً قد أوقع بعروس البحر وجاء بها الىٰ السجن ..

وجدت الفتاة طريقها الىٰ سرداب بددت وحشته القناديل المضيئة .. تمتم مسرور بكلمات جافّة :

- هذه جارية بعثها الخليفة لتخدمك .

رفع موسىٰ عينين تتألق فيهما الأنوار كسماء تزخر بالنجوم .

قال يخاطب العملاق:

- قل لهارون : بل أنتم بهديتكم تفرحون ، لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها ..

ظلّت الحسناء واقفة ربّما لأول مرّة في حياتها تشهد رجلاً استثنائياً ..

وقفت تتأمل موسىٰ تحاول اكتشافه ترىٰ من يكون هذا الرجل الذي حار في أمره هارون؟!

استدار الجنّي خارجاً ووجدت الفتاة نفسها تتبعه بصمت مرّ وقت طويل .. ربّما ساعات ثلاث أو اكثر عندما عاد الجنّي ومعه الحسناء الفاتنة .. دلف الىٰ السرداب وخاطب موسىٰ بفظاظة :

ـ يـقول الخـليفة : ليس بـرضاك حـبسناك ولا بـرضاك أخدمناك . .

لم يصبر ليسمع جواباً . . ترك الفتاة في السـرداب وصـفق خلفه الباب . .

هيمن صمت متوتر . . شعرت الفتاة انها في حضرة انسان يشّع طمأنينة وسلاماً . . سكينة مطلقة كنبع يتدفق بهدوء ، ووقار مهيب يجعل للزمن حديثاً تحسّه النفس بوضوح .

وتمرّ أيام وليالي . . موسىٰ غارق في صلاة لا نهاية لها . .

فـالرحيل وشيك حـاولت الحسـناء ان تسـبر غـوره ، أن تستكشف عوالمه فقالت متودّدة وفي كلماتها مكر أنثوي :

ـ هل لك حاجة اعطيكها ؟

رفع الإمام عـينيه ورمـقها بـعطف . . انـها ضـحية هـارون وكنوزه قال لها موسىٰ وهو يفتح أمـام عـقلها المـحجوب عـوالم مترعة بالسلام :

ـ وما حاجتي اليك ؟

ـ لا أدري ولكني أدخلت عليك لحوائجك .

هناك أشياء محجوبة عن بصر الإنسان . . مـرئيات تـحتاج الىٰ بصيرة نفّاذة . . بصيرة يـمكنها أن تـرىٰ فـي الجـماد حـركته

الهائلة ، ترىٰ الأشجار وهي تمدّ عروقها في التراب والطين ، وترىٰ الجذور وهي تشرب المياه . . وترىٰ البراعم وهي تتفتح . . وترىٰ العالم الذي تسبح فيه الأرواح بسلام . . وفي لحظة رهيبة من اللحظات التي تتحطّم فيها جدران الزمن وتتمزق فيها الحجب المظلمة . . فتسطع الحقائق . .

في مثل تلك اللحظات قال موسىٰ كلمات وهو يشير الىٰ جدار صخري . . تحطم جدار الزمن لتسطع الحقائق لحظات في قلب الوقائع . .

واذا بالفتاة أمام مشهد لم يكن ليخطر علىٰ بالها .. تلال خضراء مغمورة بالنور . . خضرة لا نهاية لها . . مجالس مفروشة بالوشي والديباج . . وفتيات حسان يرفلن بالحرير الأخضر ، وعلىٰ رؤوسهن أكاليل من اللؤلؤ والياقوت ، في أيديهنّ أباريق ومناديل وأطباق الفاكهة . .

كان المشهد مثيراً . تيّارٌ من الحقائق الساطعة . . تيّار يصعق العقل البشري يدمّر كل ما تراكم عليه من خطايا الإنسان . .

وسمعت ابنة حوّاء نداءً قادماً من عوالم مغمورة بالنور :

ـ ابتعدي ! عن العبد الصالح :

سقطت الفتاة لوجهها . . سقطت ساجدة ، وقد سطعت الحقائق في روحها . . اضاءت كل عالمها المظلم . .

لم يعد لهارون مكان في روحها .. لقد تحررّت تماماً .. تدفقت الدموع من عينيها النجلاوين .. انها تغتسل .. قلبها.. روحها، وكل وجودها ، انها تولد من جديد وقد تطهّرت من كل أدران الأرض ..

غير انها لم تعد قادرة علىٰ الاحتفاظ بتوازنها .. غرقت في سجود طويل .. عميق .. لكأنها تغتسل في نبع يتدفق بالنور ..

كان هناك من يتلصص .. من كوّة ضيقة .. بقدر ما تسمع للسجّان أن يراقب سجناءه ..

كان مسرور يترقب اللحظة التي تنتصر فيها الفتنة الانثوية.. يشهد هزيمة الروح أمام ضجيج الغرائز الآدمية ..

ما أكثر مصارع الرجال في هذا المعترك .. ما أكثر الذين هزمهم هارون بجواريه .

ولكن يا للدهشة .. ما بال هذه الحمقاء ساجدة .. ما بالها تهتف من اعماق روحها : قدّوس .. قدّوس .. قدّوس[55] ..

هزّ «مسرور» رأسه وراح يقلّب عينيه من خلال الكوّة في الجدران الصخرية لعلّه يعثر علىٰ شيء يفسّر له ما يرىٰ .

لقد حلّت الكارثة .. هزمت آخر الاسلحة .. السجين مايزال هو .. هو .. هو .. كقلعة حصينة تقاوم ..

اسـرع «مسـرور» الىٰ سيّده .. كل شـيء يـوحي بـهزيمة ساحقة.

صرخ هارون وهو يتفجّر غيظاً ..

ـ عليّ بها .. سحرها والله موسىٰ .

أُنتزعت الحسناء بقسوة ، جرّها الخادم الىٰ خارج السرداب.

كانت تنظر الىٰ السماء تبحث عن شـيء اكـتشفته .. لا تـفتأ تهتف : قدّوس .. قدّوس .. ربّ الملائكة والروح ..

الجسد الغض يرتعد .. ينتفض بشدّة .. انها حـمّىٰ الحـقيقة التي يكـتشفها المـرء فـجأة .. انـتفاضة الروح .. اشـتعال الفـطرة الإنسانية تحت ركام الغرائز .. توهج الارادة .. وهزيمة الشيطان .

كانت الفتاة مـاتزال تـنظر فـي السـماء تـحدّق فـى الأغـوار اللانهائية .. وكان هارون يتميّز غيظاً صرخ بقسوة :

ـ ما شأنك ؟

اجابت الفتاة وعيناها النجلاوان تمتلآن دموعاً :

ـ شأني الشأن البديع .. كنت واقفة عنده وهو قائم يصلّي .. فلما انصرف من صلاته قلت له : هل لك حاجة .. اني ادخلت عليك لحوائجك .. فاشار بيده وقـال : فـما بـال هـؤلاء .. واحسست أن الأرض تدور بي فرأيت ما لا عين رأت .. وسمعت ما لا أذن سمعت

ولم يخطر علىٰ قلب بشر . . رأيت رياضاً خضراء تمتد في الأفق البعيد . . تغمرها أنوار بهيجة . . ورأيت صبايا كأنهن اللؤلؤ المنثور . يخطرن في التلال الخضر . . وعلى رؤوسهن أكاليل من لؤلؤ ومن ياقوت . . وفي ايديهن اباريق من فضة ومناديل من استبرق وحرير . .

صرّ هارون علىٰ اسنانه بغيظ :

ـ يا خبيثة انك سجدت ونمت ، ورأيت ذلك في النوم . . أضغاث احلام !

اجابت الحسناء وقد سطعت الحقيقة في أعماقها:

ـ لا والله يا سيدي . . رأيت هذا قبل سجودي . . فسجدت من أجل ذلك . .

التفت الرشيد الىٰ خادمه . . غمز بعينه . . امسك الجنّي بالحسناء وقادها الىٰ حجرة في القصر . . تحولت الحجرة الىٰ معبد صغير . . الىٰ محراب للصلاة والتبتل .

سجود حتىٰ الاستغراق . . وعبادة حدّ التبتل . . وتأمل حتىٰ الذهول . . وتحديق في السماء حدّ السهوم ، وتفكر حتىٰ السكر . . وسكر حتىٰ الانتشاء وسطوعاً للروح حتىٰ الفناء . .

وتمرّ الأيام . . أيام قليلة في حسابات الساعة ذات الاجراس

النحاسية .. ولكنها رحلة اكتشاف سبرت كل معاني الحياة .

لشدّ ما يغيظ هارون .. انّ سحره انقلب عليه .. وأن الخنجر الذي أراد أن يطعن به موسىٰ يرتد الى نحره ..

واشتعل مشهد يكاد يضئ التأريخ يوم وقف موسىٰ بن عمران يعظ قومه ، فنهضت امرأة أغراها قارون بكنوزه .. نهضت لتطعن المواعظ لتقتل موسىٰ ..

قالت : انت راودتني عن نفسي .. وغضب موسىٰ .. غضبت السماء .. واقرّت البغيّ انّها فعلت ذلك بأمر قارون .. اهتزّت الأرض لغضب السماء .. ابتلعت قارون وكنوزه أصبحت أثراً بعد عين .. ترىٰ هل يعيد التاريخ نفسه ؟

اختفت الفتاة بعد أيام .. تهامس سكان القصر تحدّثوا عن قصّتها وهي لا تفتأ تذكر موسىٰ ..

تذكر العبد الصالح الذي ازاح عن عينيها غشاوة الحياة الدنيا.. فتح لها نوافذ تطلّ علىٰ عالم الروح .. عالم مترع باللذائذ .. مفعم بالمحبّة والسلام ..

نامت الفتاة ذات يوم ولم تستيقظ .. وتهامس سكان القصر في قصّتها .. هل أكلت رطباً ؟ أم عنباً .. ؟ هل ذهبت الىٰ الحمّام ؟ لا أحد يدري ولكن من المؤكد أنها ذهبت شهيدة للحبّ الالهي .

39

كل شيء ينذر بوقوع كارثة .. كارثة من نوع غير مفهوم ، بغداد يلفّها الضباب والشتاء يحمل غيوماً وسحباً .. ورجال الشرطة يجوبون الأزقة في الليل .. وكتابات على الجدران .. كلمات تتأوّه من الليل وللبرد والفراق .. بغداد أضحت مدينة اشباح مخيفة غادرتها حمائم السلام .. وتكاثرت فيها اسراب الغربان ولم يعد الكروان يغني في لياليها .. وحدها الأبوام تنعب في الظلام تبشر بالخرائب والأطلال ..

موسى مايزال في السرداب .. تغمره السكينة ويتدفق من حوله تيار السلام .. وفي زاوية من السجن بدت رسائل ملفوفة بعضها مفضوض وآخر ما يزال مختوماً .. رسائل من مختلف الأصقاع .. تسأل تبحث تنشد الحقيقة وتبحث عن الحق في زمن الأباطيل ..

وجلس أبو ابراهيم يسطر رسالته الأخيرة.. رسالة الىٰ علي بن سويد.. موسىٰ يسطر آخر الكلمات.. لقد اشتدّت ظلُمة الليل وأزفت ساعة الرحيل..

الإمام يسطر كلماته للأجيال.. كلمات مخزونة بالرعود وبالبروق.. مشحونة بالغضب.. والمقاومة حتىٰ الموت:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله.. العلي العظيم.. الذي بعظمته ونوره أبصرت قلوب المؤمنين.. وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون..

وبعظمته ونوره ابتغىٰ من في السماوات والأرض اليه الوسيلة بالأعمال المختلفة.. والاديان المتضادة..

فمصيب ومخطئ.. وضالّ ومهتدي.. وسميع واصمّ وبصير وحيران..

فالحمد لله الذي عرّف ووصف دينه محمد ﷺ.

اما بعد:

فانك امرؤ أنزلك الله من آل محمد بمنزلة خاصّة، وحفظ مودة ما استرعاك من دينه، وما ألهمك من رشدك، وبصّرك من دينك بتفضيلك ايّاهم وبردّك الأمور اليهم..

كتبت اليّ تسألني عن أمور كنت منها في تقيّة ومن كتمانها

في سعة ..

فلما انقضىٰ سلطان الجبابرة وجاء سلطان ذي السلطان العظيم .. بفراق الدنيا المذمومة الىٰ أهلها العتاة علىٰ حالتهم .. رأيت أن أفسّر لك ما سألتني عنه .. مخافة أن تدخل الحيرة علىٰ ضعاف شيعتنا من قبِل جهالهم .

فاتق الله عزّ ذكره ، وخصّ بذلك الأمر أهله واحذر أن تكون سبب بلية علىٰ الاوصياء أو حارشاً عليهم بافشاء ما استودعتك ، واظهار ما استكتمتك وان تفعل إن شاء الله ..

ان أول ما انهى اليك انّي انعىٰ اليك نفسي في ليالي هذه .. غير جازع .. ولا نادم .. ولّا شاك فيما هو كائن مما قد قضىٰ الله عزّ وجل وختم .

فاستمسك بعروة الدين آل محمد .. والعروة الوثقىٰ الوصي بعد الوصي .. والمسالمة لهم والرضا بما قالوا .. ولاتلتمس دين من ليس من شيعتك ، ولا تحبّن دينهم ، فانّهم الخائنون .. الذين خانوا الله ورسوله وخانوا أمانتهم .

أوتدري ما خانوا أمانتهم ؟

أئتمنوا علىٰ كتاب الله فحرفوه ، وبدلوه ، ودُلّوا علىٰ ولاة الأمر منهم فانصرفوا عنهم فاذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وسألت عن رجلين اغتصبا رجلاً مالاً ، كان ينفقه علىٰ الفقراء والمساكين ، وابناء السبيل ، وفي سبيل الله ، فلما اغتصباه ذلك لم يرضيا حيث غصباه حتىٰ حملاه إيّاه كرهاً فوق رقبته الىٰ منازلهما ، فلما احرزاه تولّيا انفاقه .. أيبلغان بذلك كفراً ؟

فلعمري لقد نافقا قبل ذلك وردّا علىٰ الله عزّ وجل كلامه وهزئا برسوله وهما الكافران عليهما لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

والله ما دخل قلب احدهما منهما شيء من الايمان منذ خروجهما من حالتيهما، وما زادا الّا شكاً ..

كانا خدّاعين مرتابين منافقين ، حتىٰ توفتهما ملائكة العذاب الىٰ محلّ الخزي في دار المقام ..

وسألت عمن حضر ذلك الرجل وهو يُغصب ماله ، ويوضع علىٰ رقبته ..

منهم عارف ومنهم منكر .. فاولئك أهل الردّة الأولىٰ من هذه الأمّة فعليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

وسألت عن مبلغ علمنا ..

هو علىٰ ثلاثة وجوه ؛ ماض وغابر وحادث ، فامّا الماضي فمفسّر وامّا الغابر فمزبور ، واما الحادث فقذف في القلوب ونقر

في الاسماع ، وهو أفضل علمنا .. ولا نبي بعد محمد .

وسألت عن نكاحهم وطلاقهم ..

فامّا امهات أولادهم فهنّ عواهر الىٰ يوم القيامة ..

نكاح بغير ولي وطلاق في غير عدّة ..

وامّا من دخل في دعوتنا فقد هدم ايمانه ضلاله .. ويقينه شكّه .

وسألت عن الزكاة فيهم ..

فما كان من الزكاة ، فانتم احق به ، لأنّا قد احللنا ذلك لكم من كان منكم وأين كان .

وسألت عن الضعفاء ..

فالضعيف من لم يرفع اليه حجّة ، ولم يعرف الاختلاف ، فاذا عرف الاختلاف فليس بضعيف .

وسألت عن الشهادة لهم ..

فاقم الشهادة لله عز وجل ولو علىٰ نفسك والوالدين والاقربين فيما بينك وبينهم، فان خفت علىٰ اخيك ضيماً فلا .. وادع الىٰ شرائط الله عز ذكره من رجوت اجابته ولا تحصن بحصن رياء ..

ووال آل محمد ولا تقل لما بلغك عنا ، ونسب الينا هذا باطلاً، وان كنت تعرف منا خلافه .. فانك لا تدري لما قلناه وعلىٰ أي وجه وضعناه .

آمن بما اخبرك .. ولا تفش بما استكتمناك من خبرك ،ان من واجب حق اخيك ؛ أن لا تكتمه شَيئاً تنفعه به لأمر دنياه وآخرته ، ولا تحقد عليه ، وإن أساء .. وأجب دعوته إذا دعاك ، ولا تخل بينه وبين عدوه من الناس ، وان كان أقرب اليه منك ..

وعده في مرضه ..

ليس من اخلاق المؤمن الغش ولا الأذىٰ ، ولا الخيانة ولا الكبر ، ولا الخنا ، ولا الفحش ، ولا الأمر به . فاذا رأيت المشوّة الاعرابي في جحفل جرّار فانتظر فرجك ولشيعتك المؤمنين ..

واذا انكسفت الشمس ، فارفع بصرك الىٰ السماء ، وانظر ما فعل الله بالمجرمين..

فقد فسّرت لك جملاً مجملاً ..

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الأخيار .

40

وفي قصر الخلافة كان هارون يفكر.. ويدبّر فقتل كيف فكّر ثم قتل كيف فكر.. ها هو يتهامس مع يحيىٰ بن خالد وقد بدت عيونهما تبرقان دناءة وغدراً.. وبينهما طبق فيه عنقود عنب وفيه رطب..

الزمن يمضي واهناً وقد بدت النجوم بين اكوام الغيوم قلوباً حزينة تنبض بالألم.. وكان القمر يختفي ويظهر.. يشرق ويغيب..

وفي منتصف تلك الليلة وفيما كانت السحب الدكناء تحتشد في السماء أيقظ يحيىٰ بن خالد مدير الشرطة السندي بن شاهك ليسلّمه طبقاً مترعاً بالرطب والعنب والغدر..

أدرك السندي ان اللحظة الرهيبة قد حلّت.. دلف الىٰ السرداب.. كان يتألق بانوار المشاعل.. وكان علي بن سويد

مايزال يشهق بعبرته.. رفسه السندي وخاطبه بفظاظة:

- أنت ماتزال هنا..

اقترب ابن سويد من سيّده العظيم قبل يده شدّ عليها مودّعاً كانت آثار القيود ماتزال محفورة همس بحزن:

- قلبي يحدّثني انني لن أراك يا سيدي.

- ستراني قريباً.

سأل بلهفة:

- متىٰ يا سيدي؟

- يوم الجمعة.

- أين يابن رسول الله؟

- علىٰ الجسر ببغداد.

جذبه السندي من يده:

- أخرج يا رافضي.

خرج علي وقد ملأ الأمل قلبه وروحه..

خرج ليبشر المستضعفين والمقهورين.. خرج ليقول أن اليوم الذي ينتظروه قد دنا.. ان هي إلّا أيام ثلاثة وتكتحل العيون..

وتبتهج القلوب بيوم الخلاص.. يوم الحريّة.. ذلك وعد غير مكذوب.

جثم صمت رهيب فوق المكان.. في ذلك السرداب البعيد عن سطح الأرض.. في ذلك القبو كان موسىٰ يستعدّ للرحيل.. للخلاص.. وقف مدير الشرطة ينظر الىٰ سجينه.. وقد وضع بين يديه طبق «الخلافة».. طبقاً مليئاً بالرطب وبالعنب.

صفق السندي بيديه.. فاقتحم الشرطة المكان.. وجوه قاسية جامدة.. منحوتة من صخر وقلوب مصبوبة من الرصاص، وقد دقت الساعة النحاسية آخر دقّات الليل.. سقطت اثنتا عشرة كرة من نحاس.. رنّت في منتصف الليل.

في ذلك الزمن النحاسي مدّ موسى يده المعروقة ليتناول رطباً مسموماً وعنبا..

نظر الإمام الىٰ نقطة ما في سقف السرداب.. كانت نظراته تخترق القضبان والصخور والظلام همس بصوت حزين:

ـ يا رب.. انك تعلم أني لو أكلت قبل اليوم كنت قد أعنت علىٰ نفسي..

غمغم السندي بصوت أجش:

ـ كل يا موسىٰ انه رطب لذيذ خصّك به الخليفة من دون

الناس . نحن في الشتاء وهذه فاكهة الصيف !

كان الإمام يلوك على مضض رطباً مسموماً ، وعنباً .

أمسك الإمام ولاذ بمحراب الصمت .

قال السندي :

ـ زد علىٰ ذلك يا موسىٰ .

رمقه الإمام بحزن :

ـ حسبك ، قد بلغت ما تحتاج اليه ! .

السم يسري في الجسد الواهن . . ورياح الشتاء تعصف ترشق النوافذ . . تدفع الأبواب الخشبية . . تولول في الأزقة ، تجوس خلال الديار تعصف بشواهد القبور . . بغداد غارقة في الليل والظلام ، نوافذها مطفئة . . ما خلا نوافذ القصور المنيفة . . تتدفق منها انوار حمراء وموسيقىٰ واصوات ناعمة . .

الخليفة يقضي ليله مع الجواري الحسان . . والالحان . . والقيان حتىٰ يطلع الصباح ، وتكفّ شهرزداد عن الكلام المباح .

وفي السماء . . كانت السحب الدكناء تتراكم بعضها فوق بعض . . بدت أكوام الغيوم لوحة مشحونة بالمطر . .

تشكلت خلجان ومرافئ وبحيرات وتلال وجبال . . وكانت

الرياح تعصف.. تدور في الغيوم.

اختفت المرافئ، وتهاوت التلال وتلاشت الخلجان، وكان القمر يفرّ خائفاً، لكأنه يبحث عن بقعة صافية في السماء.. ولكن لا جدوىٰ غرق القمر.. اندثر تحت ركام السحب.. وبدا الجو مشحوناً..

فجأة أنفجر البرق.. توهج كسوط سماوي.. جلجل الرعد في الفضاء اللانهائي دارت معركة في السماء.. وكانت الصواعق تضئ كسيوف أسطورية، وقد بدت السماء تنوء بثقل الغيوم..

واخيراً تدفق المطر من خلال ركام الغيوم عنيفاً غزيراً.. راحت ميازيب المدينة الغارقة في الليل والمطر.. تنشج.. وقد بدا جسر الرصافة حيث يخترق دجلة المدينة.. بدا في تلك الليلة المطيرة ثعباناً اسطورياً جاثماً فوق النهر.. ورجال الشرطة يهرولون.. يطرقون بعض الأبواب الكبيرة في المدينة..

استحال قصر السندي حيث يقبع السجن الخاص لمدير شرطة بغداد.. استحال تلك الليلة الىٰ معسكر اعلنت فيه حالة انذار قصوىٰ..

الاعصاب متوترة والاحذية الثقيلة تهز القاعات والأروقة.. وصهيل خيل الدوريات يوقظ النائمين.. وكان المطر مايزال ينهمر بغزارة، والرعود تدوّي.. والخليفة يحدّق في الظلام مسّه

طائف الأرق..

وحده كان موسىٰ هادئاً.. تغمره حالة من الطمأنينة والسلام.. وحده كان يمثل النقطة المضيئة وسط الظلام.. وحده في وسط الأعصار حيث تدور الدوّامة الرهيبة.. توجد نقطة هادئة.. هي المركز..

كان موسىٰ في تلك النقطة الهادئة.. العالم من حوله يموج بالمؤامرة.. بالغدر بالخسة والدناءة.. امّا هو فقد بدا في تلك اللحظات رجلاً يشبه المسيح عيسىٰ بن مريم..

السرداب مايزال مفعماً بالسلام.. وقد جلس موسىٰ.. ينوء بآلام الإنسان.. السمّ يسري في انحاء البدن المعذّب.. كشرطة الدوريات تجوس خلال المدينة.. تدوس ورود البنفسج وتسحق بأحذيتها رؤوس الاطفال.. تبقر بطون النسوة.. وتحيل شوارع المدينة الىٰ انهار تتدفق دماءً وعذابات وآهات.

وقف السندي قلقاً.. سرت في جسمه رعدة.. وكان يبذل جهداً جبّاراً للحفاظ علىٰ توازنه.. خاطب كاتب الضبط بقسوة:

- استعد.. سيأتي الشهود.. سجل الشهادات بدقة والاسماء والعناوين.. سجّل كل شيء.. كل شيء أفهمت؟

- نعم يا سيدي.

ارتفعت جلبه.. احضر الشهود كانوا ثمانين من أهل بغداد

من أهل القصور المنيفة .

وقفوا جميعاً ينظرون الىٰ موسىٰ .. موسىٰ الذي أرعب هارون .. أحال لياليه الىٰ أرق وقفوا يتطلعون الى وجه اسمر يتألق بطيوف النبوّات .. رجل لم يقهره هارون .. لم تصرعه الدنيا .. ظلّ ثابتاً كجبل قوياً كاعصار .. طاهراً كقطرات الندىٰ ..

قال السندي بلهجة مترعة بالدجل :

ـ انظروا الىٰ هذا الرجل .. هل حدث به شيء ؟ ان الناس يزعمون .. انه قد فعل به مكروه .. يكثرون من ذلك .. هذا منزله .. انظروا قناديل .. مشاعل .. وهذا فراشه .. انه يعيش في سعة .. لم يقصّر الخليفة في التوسعة عليه .. لا يعيش في ضيق .. لم يرد به الخليفة سوءً .. لقد حبسه فقط .. حبسه ليناظره .. وها هو موسّع عليه فأسألوه ! لم يجرؤ أحد على السؤال ..

عاصفة من الشك تجتاح المكان تعصف بالرؤوس .. قال موسى بصوت أوهنه العذاب :

ـ امّا ما ذكر من التوسعة ، وما اشبه ذلك فهو علىٰ ما ذكر .. غير اني اخبركم ايها النفر .. اني قد سقيت السم في تسع تمرات .. انني أموت ..

انهار السندي .. اسقط في يده ، لقد تكشفت خيوط جريمته لعبة قديمة .. يلعبها الطغاة .. يقتلون الإنسان من الداخل .. خنجر

لا يراه أحد . . يأتي الطبيب .. يجري فحوصات علىٰ سلامة الجسم من كل شدّة خارجية . . جرح ، سوط عذاب . . يسجل شهادته : مات حتف أنفه . . ولكن الجوع والسم والعذاب . . كل هـذا لا يـحسب له طبيب السجن حساباً !

41

تدهورت صحة السجين في اليوم التالي اجتاحت وجهه صفرة .. فرّت الدماء من الوجه الأسمر .. بات شاحباً تماماً .. قد يدهمه الموت بين لحظة وأخرىٰ ..

استدعي الطبيب للكشف عن حالة السجين الغريب .. في الطريق عرف الطبيب ان السجين ليس بغدادياً ولا عراقياً .. انه حجازي مدنيّ ليس له في بغداد أهل ولا عشيرة .

دلف الطبيب الىٰ السرداب .. كان كل شيء هادئاً ما خلا خطىً ثقيلة وئيدة لمدير الشرطة كان يذرع ارض السرداب جيئة وذهاباً.. بداعصيباً وهو يعقد يديه على صدره البارز فوق بطن منتفخة ..

اجرىٰ الطبيب فحوصات أوليه .. كان يبحث عن سبب

لعلّته.. لهذا الشحوب القاتل في وجهه.. الىٰ لسانه الذي اسودّ قليلاً.. هزّ رأسه حيرة سأل مغمغماً:

ـ ما حالك..

سكت الإمام.

سأل الطبيب بلهجة فيها الحاح:

ـ اتشكو علّة.. انني لا أرىٰ في جسمك أثراً لجرح ؟!

رمقه الإمام بطرف عينه، وفتح راحته اليمنىٰ وقال بصوت أوهنته سنون العذاب!

ـ هذه علّتي..

كانت نقطة مزرقة تحكي سريان سمّ فتّاك.. سم قاتل لا يرحم جسد الإنسان.

هزّ الطبيب رأسه بأسىٰ ونهض كان السندي يترقب افادة الطبيب.. قال الطبيب بلهجة فيها مرارة:

ـ والله لهو أعلم بما فعلتم به منكم!

اكتفىٰ السندي بأن رمق الطبيب بنظرة شزراء.. فيها تهديد ووعيد.. لم يصمد الطبيب انسحب علىٰ عجل تاركاً الضحية والجلاد..

صدرت الأوامر بمنع كافّة أنواع الزيارات.. شدّدت

الحراسة بشكل مكثف .. قطع عنه الماء والغذاء .. ومنعت جميع الاسعافات تركوا السجين يواجه مصيره .. لوحده .. وبين الفينة والأخرىٰ كان مدير الشرطة يدهم المكان ليسمع ضحيته الوان الشتائم .

موسىٰ يواجه آلامه الرهيبة لوحده .. آلام لا يحتملها كائن بشري ولكن الإنسان الذي سطعت في اعماقه الحقيقة ، واضاءت فى طواياها النبوّات .. كل النبوّات ، تتحمل بعزم كل عذابات الأرض وويلاتها .

في منتصف الليل وفيما كانت بغداد تغط في نوم ثقيل تدهورت صحة السجين أكثر فاكثر .. شعر أنه يقترب من النهاية نهاية كلّ الحيوات ..

أُستدعي مدير الشرطة فحضر علىٰ الفور .. جاء السندي يشهد اللحظات الأخيرة في عمر الضحيّة .. ليشهد الفصل الأخير من ملحمة المقاومة .. جاء ليرىٰ كيف يموت الإنسان وحيداً .. كيف تنطفئ الشموع بصمت .. وكيف يرحل موسىٰ..

سوف يهنأ هارون في دنياه العريضة .. ينصرف الىٰ متعه وغرائزه .. يخلو مع الكعاب الحسان .. سوف يسكت موسىٰ .. يسكت الىٰ الأبد ..

كان السندي يتوجس خيفة من غضب شعبي عارم .. ربّما

تثور بغداد .. لا يريد أن يصبح كبش فداء من أجل هارون .. انّه يعرف جيداً ما يجري في الظلام .. وكيف يصبح البعض موتىٰ دون سبب واضح ..

من اجل هذا عزم علىٰ أن يتولىٰ مراسم الدفن .. ويتحمل نفقات الكفن .. وشق الضريح ! لهذا تمتم بلهجة أراد لها أن تكون خالية من فظاظته المعروف بها :

ـ لقد عزمتُ علىٰ أن أتولّىٰ الكفن والدفن قال الإمام دون أن ينظر اليه :

ـ إنّا أهل بيت مهور نسائنا وحجّ ضرورتنا وأكفان موتانا من طاهر أموالنا .. وعندي كفني..

سكت هنيهة وأردف بصوت واهن ، ولكن فيه عزيمة الروح القويّة :

ـ ان لي مولىٰ يسكن في مشرعة القصب عنده كفني وهو يتولّىٰ غسلي ..

الجسد الآدمي لم يعد قادراً علىٰ احتمال روح تضج بالرحيل.. الجسد الآدمي تفتك به السموم .. بلع موسى ريقه .. كان جافّاً تماماً .. غادرته الحياة كأنه عبر الصحراء بلا ماء .. طلب ماءً.. جاء حارس غليظ بجرّة صغيرة .. شربها علىٰ مهل .. ثم سقط علىٰ وجهه فيما كانت تمتمات الصلاة تموج علىٰ شفتيه ..

ارتاع السندي شعر بهول الجريمة لقد هوىٰ موسىٰ شهيداً له رهبةُ الشهادة.. أصبح صمته اكثر دوّياً.. اكثر رهبة!

وفيما كانت السماء تنث مطراً خفيفاً كان رجال الشرطة، يجوبون ازقّة بغداد ويطرقون بعض الأبواب..

مرّة أخرىٰ يريد مدير الشرطة أن يبعد عن نفسه الاتهامات.. طرق شرطي باب منزل في الرصافة من بغداد.. في غمرة الظلام والمطر.. ارتفعت دقّات تمزق سكون الليل.. هتف رجل يدعىٰ عمرو بن واقد:

ـ من الطارق.

ـ أفتح الباب.

هبّت الأسرة مذعورة.. شرطي بالباب.. ارسله السندي مدير الشرطة العام لبغداد.. ماذا حصل؟!.. أوصىٰ عمرو عياله.. قال لهم ربما لا يعود.. قال لهم اذا لم يعد هذه الليلة فليبحثوا عنه في الصباح..

تمتم وهو يتبع الشرطي في الظلام: انا لله وانا اليه راجعون.

الليل في هزيعه الأخير.. وصل عمرو قصر مدير الشرطة.. كانت ثيابه قد ابتلت تماماً.. وأرنبة أنفه تقطر ماءً.. وقبل أن يُحيّي عمرو السندي هتف مدير الشرطة مرحباً:

ـ يا أبا حفص، لعلنا أرعبناك وأزعجناك؟

ـ نعم .

ـ ليس هنا الا الخير .

ـ اذن فابعث الىٰ أهلي رسولاً ليخبرهم ، فلقد تركتهم مروعين .

ـ أفعل .

اشار السندي الىٰ جلواز وهمس في أذنه شيئاً .

قال السندي بعد أن استعاد عمرو توازنه :

ـ أتدري يا أبا حفص لم ارسلت اليك ؟

ـ لا .

ـ أتعرف موسىٰ بن جعفر ؟

ـ نعم اعرفه وبيني وبينه صداقة منذ دهر .

ـ هل ببغداد ممن يُقبل قوله وشهادته يعرف موسىٰ .

ـ أعرف بعضهم . .

ـ أذكر اسماءهم . . حتىٰ نبعث خلفهم . .

مرّة أخرىٰ تحوّلت دار السندي الىٰ معسكر يعج بالحركة . . رجال الشرطة آتون ذاهبون . . والشهود يتقاطرون زرافات ووحدانا . . حتىٰ إذا انبلج نور الفجر كان عدد الشهود قد ناهز السبعين . . الأعصاب متوترة . . والعيون حمراء بسبب السهر والتعب . .

حضر كاتب الضبط فسجّل اسماء الشهود واحداً واحداً . .

أعمالهم ومنازلهم وحتىٰ صفاتهم..

دخل كاتب الضبط وحيّا السندي قائلاً:

ـ كل شيء جاهز.. ضبطت جميع الاسماء، وفيهم فقهاء ورواة؛ الشهود ينتظرون في إحدىٰ القاعات الكبيرة. . دلف السندي وخاطب عمرو بن واقد:

ـ قم يا أبا حفص.

نهض عمرو ونهض الشهود.. قادهم السندي الىٰ السرداب حيث سجّي جثمان الشهيد.. سيطرت رهبة المكان علىٰ النفوس.. قال السندي:

ـ اكشف يا أبا حفص عن موسىٰ بن جعفر.

تقدم عمرو وجلاً وازاح علىٰ مهل ملاءة بيضاء كالثلج..

ظهر وجه رجل اسمر بدا نائماً غارقاً في الشحوب.. التفت السندي الىٰ حشد الشهود فقال لهم:

ـ انظروا اليه.

راح اشباه الرجال يمرّون عليه الواحد تلو الآخر حتىٰ اذا تكامل عددهم قال السندي:

ـ تشهدون كلكم ان هذا موسىٰ بن جعفر؟

ـ نعم.

اشار السندي الىٰ جلواز قريب منه :

ـ جرّده من ثيابه .

تقدّم الجلواز وراح يـجرّد الثـياب كـاشفاً عـن جسـد نـحيل هزيل . . يحكي أيام الجوع والعذاب والقهر وثقل القيود . . وقسوة الجلّادين .

هتف السندي بلهجة رسمية جافة :

ـ أترون به اثراً ؟

كان الشهود يدلون بشهادتهم الواحد بعد الآخر .

ـ لا . .

ـ لا . .

ـ لا . . . لا . . . لا . . . لا . .

وكان السندي يخاطب كاتب الضبط . . سجّل شهاداتـهم . . سجّل . . لا شك ان الجميع سيصدقون ان موسىٰ مات حتف انفه . .

لم يلتفت أحد الىٰ البقع الزرقاء في بعض الاجزاء من جسده.. لم يلتفتوا الىٰ بعض الأورام هنا وهناك . . لاح الصباح ولمّا تشرق الشمس بعد . .

السماء ماتزال ملبّدة بالغيوم . . مـثقلة بـالسحب . . مـاتزال تنث مطراً خفيفاً كدموع اليتامىٰ في ليلة شتائية قارسة البرد .

42

بدا ذلك الصباح رمادياً . . والمـارّة كـانوا يـعبرون الجسـر بسرعة بسبب المطر . . ورجال الشـرطة يـتمركزون فـي مـناطق حساسة .

كل شيء كان ينذر بـالخطر . . شـائعات كـثيرة تـحوم فـي سماء بغداد . . وفي الضـحىٰ وفيما كانت السماء ماتزال تنث المطر علىٰ هون ، خرج نعش الشـهيد مـوسىٰ بـن جـعفر يـحمله رجـال الشرطة والجيش يتقدمهم السـندي مـدير شـرطة بـغداد . . بـدوا ببزاتهم السوداء أسراب من الغربان جاءت لتبشّر بزمن الخرائب .

الحشود السود تتجه صوب جسـر الرصـافة . . العـابرون ينظرون بخوف الىٰ مـا يـجري . . الأحـذية الثـقيلة تـهزّ الطـرقات والسكك في طريقها الى الجسر.. بدا دجلة حزيناً وأمواجه تـندفع متلاحقة . . وقد امتدت جبهة النهر لتلتقي عند الافق الغائم المدلهم..

فيما بدت اشجار النخيل اهداب حورية تبكي بصمت..

وصلت حشود الشرطة وهي تحفّ النعش الىٰ الجسر.. فجأة دوّت نداءات الجلاوزة:

- هذا موسىٰ بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت، فانظروا اليه ميّتاً!

كانت الشرطة في حالة انذار قصوىٰ تحسباً للطوارئ، فقد يستفز هذا النداء بعض أهالي بغداد.. ان موسىٰ يعيش في القلوب، سلطانه في القلوب والضمائر الحرّة..

السماء ماتزال تسحّ من دموعها الثقال.. ووجه الشهيد مكشوف للعابرين.. النداء يرتفع بين الفينة والأخرىٰ.. العابرون فوق الجسر.. تجمعوا ينظرون الىٰ موسىٰ.. ينظرون الىٰ آخر الرجال..

ينظرون الىٰ السيّد العظيم.. يا للوعة..

أهكذا يرحل الرجال الصالحون سرت همهمة لا يُعرف مصدرها بعد. سرت الكلمات كالسحر تلاقفتها الآذان كخيال جميل..

- موسىٰ لم يمت.. أقسم ان له ليس موسىٰ بن جعفر.. لقد شبّه لهم.. اما موسىٰ فقد رفع الىٰ السماء.. كما رفع عيسىٰ بن

مريم موسىٰ لم يمت.. موسىٰ مايزال حيّاً..

السماء ماتزال تمطر.. والمطر مايزال يغسل وجه الشهيد الراحل ورجال الشرطة كاسراب الغربان ماتزال تنادي:

ـ هذا موسىٰ بن جعفر. مات الذي تزعم الرافضة أنه لايموت انظروا اليه.. انه ميّت..

في الجانب الآخر من النهر.. وقريباً من الجسر علىٰ ضفاف النهر يرتفع قصر منيف.. انه قصر سليمان.. عم الخليفة..

كان سليمان يطلّ عبر النافذة علىٰ النهر.. رأىٰ ذلك الصباح الغائم.. رأىٰ جموع غفيرة من لابسي السواد تحمل نعشاً فوق الجسر..

وفي كل مرّة كان النعش يوضع علىٰ الأرض بقسوة وصيحات تتعالىٰ في الفضاء.. والجثمان تغسله السماء.. تساءل سليمان عما يجري فوق الجسر! قال أحدهم وقد أحاط بما يجري خبرا:

ـ هذا السندي بن شاهك ينادي علىٰ موسىٰ بن جعفر.

ـ ينادي؟!

ـ نعم سمعتهم يصيحون: هذا موسىٰ بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت.

- موسىٰ ينادىٰ عليه هكذا .. يا لهوان الدنيا !

لا أحد يدري لماذا هبّ سليمان .. لماذا تفجّرت في أعماقه الثورة صاح باولاده المسلحين :

- انزلوا مع غلمانكم فخذوه من ايديهم فان مانعوكم ، فاضربوهم ، ومزّقوا ما عليهم من السواد .

وشهد الجسر عند الجثمان مشادّة بين رجال سليمان وبين الشرطة ..

وجد رجال الشرطة انفسهم عاجزين عن مقاومة عم الخليفة وأقوىٰ شخصية في الأسرة العباسية بعد الخليفة .

حُمل الجثمان الىٰ القصر المنيف ، وبدأت علىٰ الفور مراسم الغسل والكفن .. ولفّ الجسد الطاهر بحبرة فيها كتابات قرآنية .. وشهد أحدهم أن شاباً غريباً كان يشارك في مراسم الغسل والكفن وكانت دموعه تهمل من عينيه بصمت .

احتفىٰ سليمان لاعلان فجيعته .. وبدأ موكب التشييع يتحرك منطلقاً من القصر الىٰ الجسر .. وعلىٰ جسر الرصافة دوّت نداءات كان سليمان قد أمر بها :

- ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيب ابن الطيب موسىٰ بن جعفر فليحضر ..

الموكب الحزين يشق طريقه في أزقّة بغداد وشوارعها.

المطر مايزال يتساقط كدموع اليتامىٰ..

هبّ أهل بغداد.. هرعت المدينة عن بكرة أبيها لتشارك في موكب تشييع العبد الصالح موسىٰ..

لم يبق أحد في منزله فـي ذلك اليـوم المـطير.. انـتظم أهـل بغداد في موكب جنائزي.. العيون تبكي وآهات تبحث عن السلام الراحل تتصاعد في الفضاء..

توقف الموكب في سـوق الريـاحين.. وحُـطّ النـعش فـوق الأرض.. ليتحول ذلك المكان الىٰ بـقعة طـاهرة.. ونـثرت فـوق النــعش طــاقات الريـاحين.. فـيما كـان حـملة مـجامير العـطور ينتظرون استئناف الموكب مساره الىٰ مثوىٰ الشهيد الأخير..

ارتفع النعش فوق الأنامل.. العيون تبكي، والقلوب صدّعها الحزنُ، والفجيعة تهزّ الارواح.. لقد رحل السلام..

الموكب في طريقه الىٰ قنطرة قطربل.. حـيث يـتدفق دجـلة عبر ممر مائي صغير..

الموكب يتجه الىٰ بقعة بين بسـاتين «زبـيدة» ومـحلّة بـاب التبن حيث تنهض هناك بيوت الفقراء..

وفي مقابر قريش كان المثوىٰ الأخير.. شقّ ضريح الشهيد

ووري الثرىٰ المعطور.

وفي تلك البقعة حيث يمرّ دجلة بصمت.. وفيما كانت السماء ماتزال تبكي، والفضاء مفعماً برائحة الأرض المرشوشة بالمطر.. انبرىٰ أحد المفجوعين لرثاء السلام الراحل:

ـ قد قلت للرجل المولّىٰ غسله.

هلّا أطعت وكنت من نصحائه.

جنّبه ماءَك ثم غسّله بما اذرت.

عيون المجد عند بكائه.

وأزل أفاويه الحنوط ونحّها.

عنه وحنّطه بطيب ثنائه.

ومِر الملائكة الكرام بحمله.

كرماً ألست تراهم بازائه؟

لا توهِ أعناق الرجالَ بحمله.

يكفي الذي حملوه من نعمائه[56]..

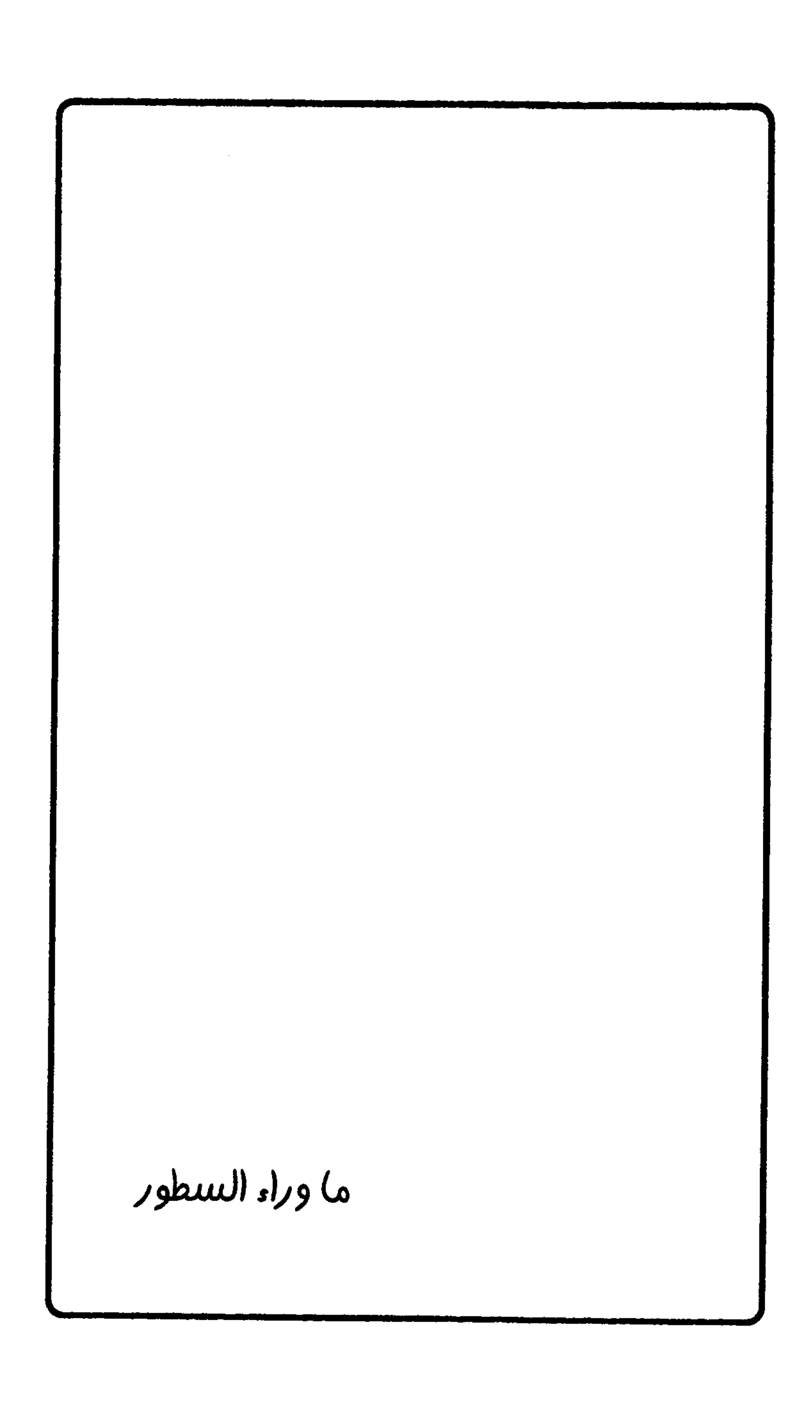
وشيئاً فشيئاً تفرقت الجماهير.. عادت الىٰ منازلها في محلّة التبن، وفي مشرعة القصب..، وفي سوق الرياحين، وفي الشماسية.. وفي محلّة باب الكوفة، ومحلة الكرخ والرصافة

والشرقية والحربية والخطابية..

أقفر المكان تماماً ما خلا شابّ ليس من أهل بغداد، كان يذرف الدموع بينما السماء ماتزال تمطر بصمت.

١٢/ربيع الأول/١٤١٨هـ




ما وراء السطور



1. تاريخ بغداد ج ١/ ١٤ ـ ٢٠.

أشيع عن التمثال بأنه يشير برمحه الىٰ المواقع التي تحدث فيها الثورات ، لان التمثال يتحرك في شتىٰ الاتجاهات .

والتمثال يتربع فوق القبة الخضراء التي سقطت في عاصفة مطرية سنة ٢٢٩ هـ.

آثار البلاد للقزويني/ ٣١٤.

2. إبن الخليفة المنصور ، ولد بالحميمة سنة ١٢٧ هـ، تولّىٰ الخلافة بعهد من أبيه ، تزوّج من ريطة بنت عمه أبي العباس السفاح .

أوقف في خلافته إضطهاد العلويين ، وكان المنصور قد ارتكب مذابح بحقهم، وكان يحتفظ بجماجم العلويين في خزانة في قصره ، وعندما جاء المهدي وتسلّم مفاتيح القصر وعثر علىٰ الخزانة إرتاع لذلك وأمر بان تحفر للجماجم حفرة لتدفن فيها ، وبنىٰ فوقها دكاناً !

تضاربت الروايات حول وفاته ، بعضها يتحدث عن رحلة صيد ودخول الخليفة إحدىٰ الخرائب واصطدام رأسه باحد أبوابها . . وبعضها الآخر يقول أن الخليفة جلس مع إحدىٰ جواريه فأكل من طعامها تظرفاً ، وكانت جارية أخرىٰ قد دست فيه السم لتقتلها ، فمات الخليفة مسموماً !

وهو أول من مشي بين يديه بالسيوف المصلته والقسيّ والنشاب والعمد.
ويعدّ من الخلفاء الماجنين.. كان يصلّي ثم ينصرف لشرب الخمر وسماع الغناء، وقد لامه وزيره يعقوب بن داود قائلاً له: «أبعد الصلاة في المسجد تفعل هذا؟!».

شذرات الذهب ١/ ٢٦٥ ـ أخلاق الملوك/ ٣٤ ـ البداية والنهاية ١٠/ ١٥١ ـ تاريخ بغداد ٥/ ٣٩١.

3. اجتاح الوباء بغداد والبصرة في سنة ١٦٧ هـ وراح ضحيته الكثير من السكان.

4. في سنة ١٦٥ هـ تزوج هارون من زبيدة وكان من أكبر مظاهر البذخ التي عاشتها بغداد آنذاك، وكانت زبيدة تنوء بالجواهر والدرّ، وفي طليعتها «البدنة» وكانت لامرأة هشام بن عبد الملك، لم يتمكن أحد من المقوّمين من تحديد قيمة لها لنفاستها.

ولد هارون الرشيد في مدينة الري سنة ١٤٩ هـ، وأمّه الخيزران كان جبّاراً طاغية وعرف بجبّار بني العبّاس.
قضىٰ على البرامكة في ليلة واحدة لأسباب ماتزال غامضة، وهو يشبه في سياسته جدّه المنصور باستثناء الجانب المالي منها.
في عهده ظهرت القصور الفخمة وكانت قصوره في «الرصافة» والشماسية تزخر بالجواري حتى بلغ عددها اثنتي عشر ألف جارية.
توفي سنة ١٩٣ هـ ودفن بمدينة طوس وكان قد توجّه الىٰ خراسان لقمع ثورة اندلعت فيها: وكانت مدّة خلافته ٢٢ سنة.

تحفة العروس/ ٣٦ ـ الجماهر/ ٦١ ـ الديارات/ ١٠٠.

5. عمل حاجباً للمنصور، وكان يخطط للاستيلاء على منصب الوزارة وقد

حقق هدفه في حياة المنصور، ثم عاد ليصبح حاجباً مرّة أخرىٰ في عهد المهدي، فأوقع بالوزير إبن يسار وعاد الىٰ الوزارة سنة ١٦٦، واستمر في منصبه في عهد الهادي للمرّة الثالثة ولم يلبث أن توفي وذلك سنة ١٦٩ هـ.

6. مقطع من خطاب «المنصور» في عرفة بمكة.

تاريخ الخلفاء/ ٢٦٣.

7. يعقوب بن داود السلمي بالولاء... وزير المهدي منذ سنة ١٦٣ هـ، اشترك في ثورة ابراهيم بن عبد الله التي اندلعت في عهد المنصور سنة ١٤٥ هـ، وقد زجّ في السجن بعد فشل الثورة والقبض عليه.

ومالبث المهدي بعد أن استوزره أن أقاله عن منصبه ليزجّ في السجن مرّة أخرىٰ، فقضىٰ في «المطبق» سجن بغداد الرهيب عشرة أعوام تقريباً، ثم أطلق سراحه فاختار مكّة ليقضي فيها بقية عمره توفي سنة ١٨٧ هـ.

8. رابع خلفاء بني العباس، تولّىٰ الخلافة سنة ١٦٩، ولبث فيها عاماً وبضعة اشهر وتوفي في ظروف غامضة.

انصرف الىٰ حياته اللاهية، وبأوامر منه تمّ قمع ثورة الحسين بن علي شهيد فخ بقسوة بالغة، وتمّ اعدام جميع الأسرىٰ في بغداد.

حاول التخلص من امّه الخيزران بالسم، ولكن امّه تمكنت على ما تذكر بعض الروايات من تصفيته ليلاً وبمعاونة من البرامكة.

9. عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب؛ كان فظّاً غليظ القلب شرس الاخلاق، مشهور بعدواته لآل البيت، وخاصّة للإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، فاتخذ اجراءات مشدّدة تجاه العلويين تنطوي علىٰ الأذلال والقسوة.

الكامل في التاريخ ٥/ ٧٤ ـ مقاتل الطالبيين/ ٢٤٣.

10. الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان يقال لوالديه بالزوج الصالح لعبادتهما.

وكان الحسين من سادة بني هاشم وفضلائهم . وقد ثار في سنة ١٦٩ في المدينة المنورة ، التفّ حوله المقهورون من سكّان المدينة فحطموا السجون واطلقوا سراح من بها .

وبويع الحسين ، فسار بقوّاته باتجاه مكّة ، وفي منطقة «فخ» قريباً منها ، إصطدم بالجيوش العباسية . واسفرت المعركة عن استشهاده ، واستشهاد العديد من أنصاره وقد أسر الباقون فحملت رؤوس الشهداء الىٰ بغداد مع الاسرىٰ ، حيث ثم إعدامهم جميعاً .

تاريخ الطبري ٨/ ١٩١ ـ إبن خلدون ٣/ ٢١٥ ، مقاتل الطالبيين/٤٣٢ تاريخ بن الأثير/٩١.

11. يحيىٰ بن عبد الله بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو أخو إدريس مؤسس دولة الأدارسة في المغرب .

ربّاه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، كان راوياً للحديث وفقيهاً ، شارك في ثورة الحسين بن علي المعروفة بثورة فخ ، فرّ بعد اخفاق الثورة الىٰ اليمن ومنها الىٰ الري وخراسان ، ودعا الناس الىٰ الثورة فيها .

أرسل هارون الرشيد جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل سنة ١٧٦ هـ ولم تحدث معركة ، فقد فضّل الفضل البرمكي مراسلته ودعوته الىٰ السلام مقابل الأمان له ولاتباعه .

وقد فعلت الرشاوي الهائلة فعلها في صفوف مؤيديه خاصّة الزعامات المحلّية في جبال الديلم، فآثر يحيىٰ السلام وسلّم نفسه الىٰ بغداد بعد أن طلب أماناً بخط الرشيد نفسه ، وقد استجاب الأخير لذلك ثم غدر به سنة ١٨٠هـ وتمت تصفية يحيىٰ بن عبد الله في سجون بغداد .

12. ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام مؤسس دولة الادارسة في أقصىٰ المغرب الإسلامي ، كان قد اشترك في ثورة فخ سنة ١٦٩ هـ، وفرّ الىٰ مصر بعد اخفاقها.

حلّ ضيفاً علىٰ قبيلة أوربة البربرية في مدينة «وليلى» التفّت حوله قبائل البربر ، واسس دولة الادارسة ، التي اسهمت في نشر الدين الإسلامي في تلك الاصقاع.

اصبحت «وليلى» عاصمة الدولة . وتهيّب الرشيد من الاصطدام به عسكرياً فلجأ الىٰ الحيلة بارسال من يتظاهر في معارضة الحكم العباسي. وقد تمكن «سليمان بن جرير الشمّاخ» من لعب هذا الدور فدّس اليه السم سنة ١٧٧ هـ، وكانت دولة الأدارسة قد نهضت سنة ١٧٢ هـ، ولم تنته بوفاته لأن البربر ظلّوا علىٰ وفائهم فبايعوا ابنه ادريس الثاني.

مروج الذهب ٢/ ٢٣٨ ـ ابن خلدون/ ٢٤ ـ مقاتل الطالبيين/ ٤٨٧.

13. وقعت معركة فخ في ٨ ذي الحجة وهو يوم التروية سنة ١٦٩ هـ، وبلغ عدد الأسرىٰ أكثر من مئة ثائر أعدموا جميعاً.

الطبري ١٠/ ٢٨.

14. كانت غادر جارية لموسىٰ الهادي أخي الرشيد وكان الهادي مغرماً بها ، حتىٰ أنه أخذ العهود والمواثيق عليها وعلىٰ الرشيد الّا يتزوّجا بعد وفاته ، وقد نكث الرشيد بوعده وتزوّجها بعد تسنّمه الخلافة ، وهو ما يفسّر عزمه الحج ماشياً سنة ١٧٠ هـ فقد كان من ضمن العهود أن يحج ماشياً اذا ما نكث بوعده.

نساء الخلفاء/ ٤٦.

15. دعاء الجوشن الصغير ورد ذكره في نسخ متعددة في مهج الدعوات لابن

طاووس/ ٢٢٠ ، ٤٢٧ وفي مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي ، وذكره أيضاً ابن شهراشوب في مناقبه .

16. يحيىٰ بن خالد البرمكي . زعيم الأسرة البرمكية ، تسنم منصب الوزارة لأبي العباس السفاح بعد تصفية الأخير لأبي سلمة الخلال الذي اتّهم بمحاولاته لتجيير الثورة للعلويين .

وبدأ صعود الاسرة في زمن الخليفة المهدي بسبب اشراف زوجة يحيىٰ علىٰ تربية هارون الرشيد ، وإرضاعه .

وفي سنة ١٦٩ هـ دبّر البرامكة مؤامرة لتصفية موسىٰ الهادي بمعاونة أمه الخيزران ، وبلغ البرامكة ذروة مجدهم في عهد الرشيد ، الذي خوّل يحيىٰ في شؤون الحكم ومنحه صلاحيات واسعة .

وقد تغلغل البرامكة في إدارات الدولة واصبحوا الحكام الفعليين في البلاد خاصّة جعفر البرمكي ، الذي لعب دوراً قذراً في تصفية العلويين ، ومالبث الرشيد أن نكب البرامكة في سنة ١٨٧ هـ لاسباب غامضة .

وفيات الاعيان ٦/ ٢١٩ ـ البداية والنهاية ١/ ٢٠٤ .
مروج الذهب ٢/ ٢٢٨ ـ تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٨ .

17. حج هارون سنة ١٧٠ هـ ماشياً وهو أول خليفة يفعل ذلك .

18. والبة بن حباب الأسدي الكوفي ، شاعر غزلي ، شامي الأصل استوطن الكوفة ، ويعد من شعراء المجون .

استاذ أبي نؤاس الشاعر المعروف تعلّم الأخير منه فنون الشعر وتعلم منه المجون أيضاً .

حاول الاقامة في بغداد في أواخر عمره ولكنّه فرّ من لسان بشّار وأبي

العتاهية الشاعرين ، اتّهم بالزندقة لفساد في مسلكة الديني والاخلاقي .
تـاريخ بـغداد ١٣/ ٤٨٨ ـ طـبقات الشـعراء/ ١٧٠
الأغاني ١٨/ ١٠٠.

19. أحـد جسـوربغداد التـي أقـامهاالمـنصور فـي بنائه العـاصمةبغداد سنة ١٤٥هـ

20. مجلة المورد البغدادية عدد خاص عن بغداد المجلد الثامن ٥٤١ بالاستناد الىٰ مجلة الوعي الإسلامي الكويتية ع/ ٣٧ ـ سنة ١٩٦٨ .

21. ظهرت دولة الادارسة سـنة ١٧٢ هـ «أسسـها إدريس بـن عـبد الله راجـع هامش 12 .
وقد أقلقت هذه الدولة هـارون الرشـيد مـما اضـطرّه الىٰ إقـطاع المـناطق المتاخمة لها لابراهيم بن الاغلب لتـنهض عـليها دولة الاغـالبة فـيما بـعد، ولتكون درعـاً للـدولة العـباسية مـن زحـف الادراسـة وقـد ظـهرت دولة الاغالبة سنة ١٨٤ هـ.

22. اقدم الرشيد في سنة ١٧١ علىٰ ترحيل العلويين من بغداد واعـادتهم الىٰ المدينة المنوّرة ، وكان يخطط لتصفيتهم وإبادتهم ، بل وتـقويض مـذهب أهل البيت ومحوه من الوجود .
الأغاني ٥/ ٣٢٥ ـ التمدن الاسلامي ٤/ ٤٧.

23. وصل يحيىٰ بن عبد الله مناطق الديلم فـي الشـمال الايـرانـي سـنة ١٧٥ ، بصحبة سبعين من خلّص أنصاره .
وبدأ إعداده الثورة ، وما لبثت بغداد أن جهزت جيشاً مؤلفاً مـن خـمسين ألف مقاتل بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي ، وبعد مفاوضات سلّم يحيىٰ

نفسه وقد لعبت الجاسوسية والرشاوىٰ دوراً في افشال للثورة، وفي سنة ١٨٠ هـ. توفي يحيىٰ في ظروف مريبة.

24. تذكر بعض الروايات أن الشخص الذي وشىٰ بالإمام الكاظم هو علي بن اسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام.

25. سكان مناطق الشمال الايراني.

26. بحار الأنوار ١١/ ٢٧١.

27. بهلول بن عمرو بن المغيرة.. أبو وهيب، من الزهاد المعروفين تظاهر بالجنون لاسباب سياسية.
كان جريئاً لا يخاف في الله لومة لائم وله مع الرشيد مواقف وعبر.
عرض عليه الرشيد القضاء فرفض ذلك. توفي سنة ١٩٢ هـ.

28. تاريخ الخلفاء/ ٢٨٤.

29. الحسن بن هانئ، المعروف بابي نؤاس أبرز شعراء عصره.
ولد في الاهواز جنوب ايران، انتقل الى البصرة ودرس اللغة والنحو والحديث علىٰ أيدي علمائها.
اتصل بالخليفة الرشيد ومدحه وانقطع الىٰ الامين، واشتهر أبو نؤاس بخمرياته، وشعر في أخريات حياته بالندم، وجد تحت فراشه لدىٰ وفاته ورقة فيها:

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه   فإذا نهاية كل ذاك أثام

توفي، قبل دخول المأمون بغداد.
تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٦ ـ شذرات الذهب ١/ ٣٤٥.
البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٧ ـ الفهرست/ ٢٢٨.

30. تشير بعض الروايات الىٰ أن علي بن اسماعيل هو الذي وشىٰ بعمّه الإمام الكاظم عليه السلام.

31. بنت الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام وشقيقة الإمام علي بن موسىٰ الرضا.
ولدت في المدينة المنورة في ذي القعدة سنة ١٧٣ هـ، وتوفيت في مدينة قم سنة ٢٠١ هـ، كانت عالمة راوية للحديث.
وكانت قوّات المأمون قد قطعت علىٰ القافلة طريقها الىٰ مرو، فمرضت في ساوة وطلبت نقلها الىٰ قم وما لبثت أن توفيت بعد سبعة عشر يوماً.
تعرف لدىٰ الايرانيين اليوم بالمعصومة.
مستدرك البحار ٨/ ٢٥٧ ـ تذكرة الخواص/ ٣٥١ ـ تاريخ قم.

32. اطلال مدينة فارسية في ضواحي البصرة، جرت بالقرب منها معركة الجمل سنة ٣٦ هـ.
وقد وصف الإمام علي حينها البصرة بالارض القريبة من الماء البعيدة عن السماء، وقد اثبت علم الهيئة ذلك.
«وقد دلّت الارصاد والآلات النجومية علىٰ أن أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الأُبلّة، والأُبلّة قصبة في البصرة... وهذا من خصائص أمير المؤمنين.. ومن أسراره وعجائبه».
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٢٦٨/١.

33. جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي وزير الرشيد وأقرب المقربين إليه.
تسنّم منصب الوزارة سنة ١٧٧ هـ، اصبح الحاكم الفعلي مدّه من الزمن.
لقي مصرعه علىٰ يد الرشيد سنة ١٨٧ وقتل بطريقة بشعة وتشير الروايات الىٰ مؤامرات ودسائس كان الفضل بن الربيع حاجب المنصور وراءها.

صلب جسده شقين كل شق علىٰ جسر من جسور بغداد ثم احرقت جثته بعد عام.

سألت عليّة أخاها الرشيد عن سبب نكبته البرامكة فقال: «لو علمت أن قميصي يعلم السبب لمزّقته».

34. شن «الميذ» أو لصوص البحر والقراصنة غارات عديدة استهدفت مدينة البصرة جنوب العراق، فقد شنّوا أولىٰ غاراتهم سنة ١٤٨ هـ ثم سنة ١٤٩ هـ وسنة ١٥٣ و١٧٨، و١٧٩ ٢٢٥ هـ و٢٢٧ و٢٣١ هـ.

تاريخ الطبري ٩/ ١٩٢.

35. المناقب لابن شهراشوب ٢/ ٣٧٩ ـ بحار الأنوار ١١/ ٢٦٥.

36. سورة القصص.

37. الفضل بن الربيع بن يونس؛ تسنّم منصب الوزارة بعد نكبة البرامكة وكان حينها حاجباً للرشيد، كان وزيراً للأمين أيضاً.

38. كان الفضل بن يحيىٰ أخاً للرشيد في الرضاعة وذلك أن الفضل والرشيد ولدا في نفس العام سنة ١٤٩ وقامت أم الفضل بارضاعهما معاً.

39. الرافقة مدينة أزمع الرشيد أن تكون عاصمة له علىٰ نهر الفرات بدأ العمل فيها مدّة ثم توقف وذلك سنة ١٧٩ هـ.

40. بنىٰ جعفر قصراً فخماً في الشماسية في الجانب الشرقي من بغداد عدّ من أفخم قصور بغداد.

وتذكر بعض الروايات ان ذلك كان أحد الاسباب التي دعت الرشيد الىٰ تصفية البرامكة خشية من اتساع نفوذهم.

تاريخ بغداد ٧/ ١٤٩ ـ الوزراء والكتاب/ ١٨٩.

41. البحار ١١/ ٢٩٩.

42. ضرب زلزال عنيف مصر سقطت إثره منارة الاسكندرية وذلك سنة ١٨٠هـ.

43. أصول الكافي ١/ ١٠٥.

44. قال فيه ابراهيم العربي: «ما أخرجت بغداد أتمّ عقلاً، ولا أحفظ للسانه، من بُشر».

وقد عرف عنه تذمّره من أهل عصره، واعراضه عن زينة الحياة. حاول المأمون زيارته فرفض.

الكنى والالقاب ٢/ ١٥٠ ـ تاريخ بغداد ٧/ ٧٣، ٧٧.

45. عبد الملك بن قريب الأصمعي، نشأ في البصرة ودرس العربية علىٰ ايدي علمائها، وكان يكثر الخروج الىٰ البوادي.

اتّصل بالرشيد وأصبح نديماً له.

غادر بغداد بعد اندلاع الحرب بين الاخوين الأمين والمأمون، له مؤلفات عديدة في الشعر وغيره توفي سنة ٢١٦هـ عن عمر ناهز الرابعة والتسعين.

الفهرست/ ٨٢ ـ شذرات الذهب ٢/ ٢٨ ـ تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠.

46 , 47. انواع من الخمور معروفة في بغداد آنذاك.

48. علي بن سويد السائي، روىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام وعن نجله الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام عدّ من الثقات في الرواية.

رجال النجاشي/ ٢١١.

49. أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكّيت كان حاملاً للواء

العربية والأدب في عصره .

له مصنفات عديدة لقي مصرعه سنة ٢٢٤ هـ علىٰ يد المتوكّل الخليفة العباسي ، فقد سأله الأخير عمّا إذا كان يحبّ ولديه «المعتزّ والمؤيد» أكثر من الحسن والحسين سبطي النبي ﷺ ؟

فقال ابن السكّيت : والله ان قنبر خادم علي بن ابي طالب عليه السلام خير منك ومن ابنيك .

فقال المتوكّل للاتراك : سلّو لسانه من قفاه .

الكنى والالقاب ١/ ٣٠٤.

50. روضة الكافي/ ١٢٥ .

51. مقاتل الطالبيين/ ٥٠٤ .

52. حياة الإمام موسىٰ بن جعفر/ ٢١٤ .

53. البحار ١١/ ٣٠٢.

54. أحداث التاريخ الإسلامي للترمانيني/ ١١١٦ .

55. المناقب لابن شهراشوب ٢/ ٢٦٤ .

56. الإتحاف بحب الأشراف/ ٥٧ .